﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُم أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُم فَاعْبُدُونِ﴾

ساعة مع العارفين

جميع الحقوق محفوظة
Copyright
All rights reserved

الطبعة الأولى
١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥م

المقطم
للنشر والتوزيع
القاهرة-مصر
٥٠ شارع الشيخ ريحان- عابدين
Tel: (00202) 7958215-
7946109
Fax: (00202) 5082233
Email:
elmokatam@hotmail.com

رقم الإيداع ٢٠٠٥/١٨٤٢
I.S.B.N
977-5732-52-2

د. سعيد الأعظمي الندوي

ساعة مع العارفين

Dr. Saeed-Al-Azami Al-Nadwi
Chief Editor "Albaas-el-Islami"
Darul Uloom Nadwatul Ulama,
Lucknow (INDIA)

د. سعيد الأعظمي الندوي
رئيس تحرير مجلة "البعث الإسلامي"
جامعة ندوة العلماء لكناؤ (الهند)

حضرة الأخ الكريم فضيلة الأستاذ محمد خالد ثابت حفظه الله ورعاه

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد فقد تلقيت رسالتكم العزيزة

بعد عودتي من سفر وقد سرني ما أبديتموه من رأيكم الغالي حول إعادة طبع
كتاب «ساعة مع العارفين» من دار المقطم بالقاهرة.

وإنني بصفتي مؤلف هذا الكتاب أرحب بهذه المبادرة الكريمة، ومني
إذن كامل أن تقوموا بطبع هذا الكتاب من دار المقطم بكل سرور.

والله ولي التوفيق

وتقبلوا أطيب التحيات
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

(وكل عام وأنتم بخير)

أخوكم المخلص
سعيد الأعظمي الندوي

٢٧/٩/١٤٢٣هـ
٢/١٢/٢٠٠٢م

إذن المؤلف لدار المقطم بطبع الكتاب

مقدمة الناشر

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، أما بعد:

فإن هذه الأمة العريقة المجيدة.. هي بحق أعظم أمم الأرض، حتى في أوقات الضعف والهزائم، لا تجدها إلا كذلك لأنها اعترفت بربها، وارتبطت بالدين الذي ارتضاه الله للناس إلى يوم القيامة، وختم به جميع الأديان والرسالات، وضمن له البقاء أبد الدهر على حالته كيوم أنزل، لا يخلق ولا يبلى، يموت أقوام ويولد آخرون، ويرفع أقوام ويخفض آخرون وهو كما هو لا يتبدل منه حرف، ولا تناله أيدي المزورين وأهل الأهواء كما حدث مع الديانات السماوية السابقة.

لذلك وصف الله سبحانه وتعالى هذه الأمة الفريدة بين أمم الأرض بقوله ﴿كُنتُم خَيرَ أُمَّةٍ أُخرِجَت لِلنَاسِ﴾.

حتى فى أوقات هوان المسلمين وضعف إيمانهم، فإن المسلم الواحد، الذى يموت على شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله خير من ملء الأرض ممن لا يقرّون بها وإن كانوا أقوى أهل الأرض وأوسعهم ثراء وأقدرهم على عمارة الدنيا وزخرفتها..

فيوم القيامة يكونون أهون الناس وأذلهم، وعندئذ تتكشف قيمة هذه الأمة، بسبب هذه الكلمة "العظيمة" التى استقرت فى قلوب أبنائها:

"لا إله إلا الله محمد رسول الله"

هذه الأمة نبيها محمد ﷺ، وقائدها محمد ﷺ، وقدوتها محمد ﷺ، وشفيعها يوم الهول العظيم محمد ﷺ، خاتم النبيين وحبيب رب العالمين.

وكتابها ودستور حياتها القرآن كلام الله الحق.

وقبلتها واحدة، تتجه إليها - من أى مكان - فى صلاتها.

هذه الأمة جمع الله لها أسباب القوة والسيادة على سائر الأمم.

فى أوقات يغلب على أبنائها حب الدنيا، ويضعف الإيمان فتستذل الأمة لأعدائها، لكن تأتى أوقات أخرى تتماثل للشفاء،

وتدب فيها العافية، فتقوم من جديد لتسود على الأمم، وتتولى مهمتها فى قيادة البشر، ونشر معالم الحق والعدل والأمن فى ربوع الأرض.

وكما استخرج الله البشرية من الظلمات إلى النور بسيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه، جعل ورثته من العلماء العاملين والأولياء الصالحين يقومون بنفس الدور فى إخراج الناس من ظلمات الجهالة والغرق فى بحار الدنيا إلى أنوار الإيمان والاتباع لسيد ولد عدنان ﷺ.

لذلك صح عن الحبيب محمد ﷺ قوله: "العلماء ورثة الأنبياء.." والأنبياء لم يورثوا أممهم دنيا أو مال، ولكن ورّثوهم العلم. لذلك كان قادة الأمة فى كل زمان هم العلماء العاملون الذين يعملون بالعلم، فكان نتيجة عملهم بالعلم أن اصطفاهم الله وأمدهم بمدده الذى لا ينفد.

الإمام أبو حامد الغزالى ـ مثلا ـ كان عالمًا لا يدانيه فى العلم أحد فى زمنه، ولكنه انتبه فجأة على حقيقة أزعجته وأضجت مضجعه وهى أنه لا يعمل بالعلم الذى علم. فكانت النتيجة أن هجر الدنيا والتدريس والأهل والأولاد، وخرج من بغداد سائحًا على طريقة أهل التصوف لمدة عشر سنوات فتح الله عليه فيها فتحًا عظيمًا لمّا أخلص فى الطلب، وبذل فى سبيله الغالى

والنفيس.

وعاد الإمام الغزالى من رحلته هذه رجلاً آخر، عاد واحداً من ربانى هذه الأمة وهداتها ومربيها. فكان كتابه إحياء علوم الدين حقًا إحياء للدين فى أمة محمد ﷺ بعد أن كادت تندرس معالمه.

وصفه الإمام النووى بقوله: "كاد الإحياء يكون قرآنا" وقالوا فيه: "من لم يقرأ الإحياء ليس من الأحياء".. وغير ذلك من عبارات الثناء على هذا العمل الفذ الكبير.

كم كان عظيمًا دور الإمام أبى حامد الغزالى فى إحياء الدين فى الأمة حتى قامت من كبوتها بعد أن كانت ممزقة بالأهواء، ذليلة باتباع النفس والشهوات؟

وكم تكرر هذا فى تاريخنا على أيدى رجال أفذاذ مخلصين أمثال ساداتنا: الشيخ عبد القادر الجيلانى، والشيخ أبو الحسن الشاذلى، والشيخ أبو مدين، والشيخ محمد بهاء الدين نقشبند، والشيخ أحمد بن إدريس، والشيخ أحمد الفاروقى السرهندى وغيرهم وغيرهم..

لذلك يقول النبى ﷺ: "يبعث الله لهذه الأمة على رأس كل مائة عام من يجدد لها أمر دينها".

من يراهم، ويتعرف عليهم - أدنى معرفة - يرى قدر هذه الأمة

عند ربها أن يبعث فيها أمثال هؤلاء.. كأنهم أنبياء يمشون على الأرض، إلا أنه لا نبى بعد النبى الخاتم ﷺ.

✓ وهذا الكتاب الذى بين أيدينا - اليوم: "ساعة مع العارفين" يأخذ بنا فى رفق إلى الهند.. قارة الإسلام العريقة، التى ربما يجهل كثير من المسلمين تاريخ الإسلام بها، وما أخرجت من رجالات الإسلام العظام الذين أضاءوا سماء الدنيا، ولا عجب، فهم شموس المعارف ومنائر الهدى.

اشتمل الكتاب على نفر قليل فقط من عظماء رجالات الإسلام فى الهند، فإن عددهم لا يتسع له كتاب، بل يحتاج إلى مجلدات ومجلدات. وهذا شأن هذا الدين، أينما حلّ تفجرت الأرض من تحته بكنوز العلم والخير والبركة..

ولعل الله سبحانه وتعالى يوفق لمزيد من الكتابات القيمة - بلغة الإسلام "العربية" - التى تقدم لأبناء الأمة فى المشارق والمغارب أبرز العلماء العاملين والأولياء الصالحين بالقارة الهندية عبر القرون، وكذلك فى غيرها من ديار الإسلام، فإن الصادقين تظل سيرهم من بعدهم تعبق جو الدنيا بروائح العطر والياسمين، وتربى الناس على الإيمان واليقين، وتبث فيهم العزيمة على الأعمال الزاكيات الصالحات.

هم بحق رياحين الدنيا، ومصابيحها فى حالك الظلمات، وهم

القادة الهداة ، بذكرهم تتنزل الرحمات..

* * *

بدأ المؤلف بالإمام الجنيد سيد الطائفة ومقدم الجماعة، ومع أن الجنيد كان بغداديًا إلا أن في ذلك إشارة لا تخفى على القارئ وهى أن من جاءوا فى الفصول التى بعده هم على نفس الطريق؛ طريق التصوف الصادق الذى هو طريق تزكية الأنفس، ودلالة الخلق على الخالق جل وعلا ، وحسن متابعة النبى صلوات الله وسلامه عليه.

فى هذا الكتاب نتعرف على الشيخ الكبير مجدد الألف الثانية الإمام أحمد الفاروقى السرهندى وخلفائه ومدرسته التى أثمرت الخير الكثير الكثير، فكان من ضمن ما أثمرت شبيه عمر بن عبد العزيز ونور الدين محمود: السلطان العادل محمد أورنك زيب وما أدراك ما محمد أورنك زيب؟!

ثم نلتقى بالإمام المجاهد الشهيد السيد أحمد بن عرفان الذى أوقد جزوة الجهاد، وقاد المجاهدين حتى لقى ربه فى أشرف ميدان؛ ميدان الشهادة.

نشأ فى بيئة صوفية كابراً عن كابر، ورضع لبنها الصافى، لكنه عندما شب استقل عنها، ربما بحثا عن طريق آخر أكثر إرضاءً لنفسه، وربما نفوراً من بعض مظاهر الفساد التى لحقت بالتصوف

في عصره!

على أيه حال فإننا نلاحظ بعض الإبهام في هذه الناحية سواء في هذا الكتاب الذي بين أيدينا، أو فيما كتب الشيخ أبو الحسن الندوي عنه في كتابيه: "إذا هبت ريح الإيمان" و "الإمام الذي لم يوف حقه من الإنصاف والاعتراف".

فهل كان السيد أحمد متأثراً بالدعوة الوهابية التي نشبت في جزيرة العرب وأصبحت تسيطر على الحرمين الشريفين بمكة والمدينة؟

يبدو أن هذا ما حدث فعلاً، وإن كان لم يأخذ عن الوهابية حربهم على المسلمين دون الكفار بدعوى أنهم مشركون، لأنه قام فعلاً بجهاد الكفار في الهند.

لكن محاولة تطبيق الأفكار الوهابية بالقوة على المسلمين في "بيشاور" كانت السبب في النكبة الرهيبة التي تعرض لها السيد ورجاله، إذ قام عليهم الناس ففتكوا بهم فتكًا شديداً، وكانت هذه النكبة هي السبب الأكبر في الهزيمة التي منى بها أمام جيش السيخ، والتي استشهد فيها.

ويؤيد هذا الرأي أن صاحبه الشيخ إسماعيل الشهيد له كتاب اسمه "رسالة التوحيد" يشتمل على ترديد واضح لعقائد الوهابية في تشريك وتكفير المسلمين بسبب زيارة الأضرحة والتوسل

بأصحابها.

هذا مع أن السيد أحمد بن عرفان لم يكن بحال طالب دنيا ولا ساعيًا لملك، وإنما كانت نيته صادقة فى جهاد أعداء الله، وجمع شمل الأمة، وإن كان أخطأ الطريق إلى ذلك باتباع عقائد المبتدعة والخوارج، عندما انخدع بظاهرهم وما ادعوه لأنفسهم من أن دعوتهم دعوة التوحيد.

لكن الإمام اعتذر بعد ذلك بأجمل كلام، مما ينم عن صفاء معدنه، ونيته الحسنة، وصدقه مع الله فيقول رضى الله عنه:

"وأعود فأقول: إن كان هناك تقصير وقع منى نحو الدين ولا أدريه، فيجب أن ينبهنى عليه هؤلاء الناس بالحكمة والموعظة الحسنة.. وأسأل علماء الوقت الحاضر أن يقوموا بواجب الأمر بالمعروف ـ للناس عامة ولهذا العاجز خاصة(يقصد نفسه) ـ والنهى عن المنكر، ويدعونا إلى الطريق المستقيم، وكل مشكلة أو اعتراض يخطر ببالهم أو يتلجلج فى صدورهم يجب أن يشافهونى به، ويقيموا عليه الدليل الشرعى، ليتمكن هذا الفقير من إصلاحه والانتقال من عبادة النفس إلى عبادة الله وحده، وهو مستعد للتوبة من كل ما يخالف أمر الله ورسوله فى قوله وعمله، ويثوب إلى الطريق الصحيح، ولكن الذين يثيرون الخلاف وينالوننى بالاعتراض، إذا لم ينبهونى على ما أقترفه من ذنب، ولم

يحدثونى فى هذا الموضوع، فسوف يعود وبال ذلك عليهم وهم مسئولون عنه.." انتهى.

رضى الله عن الإمام المجاهد أحمد بن عرفان الشهيد، فهو يربينا على الرجوع إلى الحق، كما ربّانا من قبل على حب الجهاد وبذل النفس والمال فى سبيل الله.

وهذه فضيلة أخرى تضاف إلى فضائله، ودرس جديد من دروسه البليغة؛ ما أحوجنا إلى تعلمه والعمل به.

فكم من الناس، إذا اكتشف أحدهم أنه قد خرج عن طريق الله ورسوله، وأوغل فى مسالك الباطل، وأراد أن يتوقف ليعود إلى الحق تمردت عليه نفسه، وخوّفته من الناس، ولو كان مراعيًا لله وحده ما عبأ بالناس، ولا بشىء!!

حينئذ يمده الله بعونه وتأييده..

اللهم اجز الإمام الشهيد السيد أحمد بن عرفان خير الجزاء عما قدم وبذل..

وكذا المؤلف، الذى منحنا - بكتابه هذا - ساعات جميلة لا تنسى، حلّقنا فيها بأرواحنا فوق السحاب، فى أجواء الطهر، ونعيم القرب ممن أحبهم الله، فاجزه اللهم خير الجزاء، ووفقه إلى المزيد من هذه الكتابات الطيبات الزاكيات المثمرات..

وصل اللهم على الحبيب الأعظم والنبى الأكرم سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وأتباعه ومحبيه.

وعلينا معهم برحمتك يا أرحم الراحمين.

وسلام على المرسلين .

والحمد لله رب العالمين.

محمد خالد ثابت

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة المؤلف

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين..

وبعد.. فهذا الكتاب مجموعة من لمحات سريعة عشتها مع رجال من تاريخ الإسلام وساعات حانية من الحب والحنان توخيتها فى هؤلاء الأعلام من أصحاب القلوب والإيمان الذين يعتبرون بناة التاريخ وصانعى الأجيال، وكان القصد من ذلك إثارة جوانب روحية تشف بحب خالص لله ولرسوله ﷺ، فلم أبحث عن جوانب كثيرة أخرى لهذه الشخصيات كانت موضع اهتمام لدى أصحاب التاريخ والتراجم.

إننى أعتقد أن حاجة الشباب المسلم اليوم إلى دراسة هذا الجانب المهم فى حياة العظماء والأبطال، والتركيز عليه لا تقل عن حاجته إلى إشباع النواحى الفكرية بالعلم والثقافات

المتنوعة، إذ أن الجانب الفكرى عندما يلتقى مع الجانب المعنوى يرتفع بصاحبه إلى أسمى درجة من الخلق العظيم وأعلى منزلة من القيم الروحية حيث تتضاءل أمامه الدنيا وما فيها من حطام، يتضاءل فى عينه الجاه والمال والمنصب والشرف العاجل وإنما هو ينظر بعين بصيرته إلى لذة ونعيم يعيشهما فى الدنيا يرتجيهما فى الآخرة.

والواقع الذى لا ينكره أحد له أدنى معرفة بحقيقة الحياة أن سعادة الأولى والآخرة إنما تتحقق بالجمع بين الجانبين الروحى والمادى، أو بالتقاء حسنة الدنيا مع حسنة الآخرة، الأمر الذى لا يدرك بمجرد العلم وكثرة المعلومات وتكدس الثقافات والتفنن فى مرافق الحياة ولذائذ الدنيا، بل إن ذلك يتحقق بالجمع اللائق المتزن بين اهتمامات الإنسان بنفسه وبربه معه.

ولنا فى حياة رجال الله الذين جمعوا بين العلم والإيمان وعاشوا مع الله ومع الناس فى وقت واحد، لنا فى حياتهم غذاء دسم لتربية القلب وتنمية العواطف.

هذه الثقة هى التى دفعتنى إلى جمع هذه الساعات فى هذا الكتاب، وهو الجزء الأول الذى يحتوى على ساعات من رجال الهند إلى أننى بدأت هذا الجزء بساعة مع الجنيد البغدادى تيامنًا وتفاؤلا عسى أن ينفع الله بذلك دارسيه فى مجال البحث

عن الحب الصادق الذى يخالط بشاشة قلب المسلم فيصنع المدهشات، ويحير الألباب.

والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون..

وبالمناسبة يجب على أن لا أنسى ما لصديقنا الأعز فضيلة الأستاذ الدكتور محمد الحسنى رئيس تحرير مجلة البعث الإسلامى من عناية بهذا الموضوع، وإشارات مفيدة حول كتابته ونشره فى كتاب مستقل.

كما أشكر زميلى الكريم الأستاذ نذر الحفيظ عبد الحفيظ الندوى الذى لفت نظرى إلى جمع هذه المقالات المبعثرة فى كتاب، وقد تولى هو والأخ الزميل الأستاذ عبد النور عبد العظيم الندوى إخراج الطبعة الأولى من هذا الكتاب فى دار الاعتصام بالقاهرة، كما أشكر أخى العزيز الأستاذ عبد البارى شمس الحق القاسمة الذى ساعدنى مساعدة غالية فى طبع أكثر مواد هذا الكتاب بآلته الكاتبة، فجزاهم الله كلهم خيراً.

والحمد لله أولا وأخيراً، وعليه توكلت وإليه أنيب..

سعيد الأعظمى الندوى

(١)
ساعة مع أبو القاسم الجنيد بن محمد
سيد الطائفة ومقدم الجماعة

كان أبو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد، سيد الطائفة ومقدم الجماعة، إمام أهل الخرقة وشيخ الطريقة، وعلم الأولياء في عصره، وزعيم العارفين في زمنه، اجتمع له العلم والمعرفة، والفقه والإيمان، والبصر والبصيرة، فأصلح ما فسد، وأقام ما عوج، وجبر ما انكسر، وجمع ما تفرق، ولم ما انتشر، حتى فاق العلماء والحكماء والمصلحين كلهم في ذلك الزمن، وانفرد بالإمامة والسيادة في العلم والمعرفة، وانتهت إليه الرئاسة في الفقه والإيمان، قال جعفر الخلدي:

"لم نر في شيوخنا من اجتمع له علم، وحال غير الجنيد، إذا رأيت علمه رجحته على حاله، وإذا رأيت حاله رجحته على علمه".

وعن أبي العباس بن سريج أنه تكلم يومًا فأعجب به بعض الحاضرين فقال ابن سريج: هذا ببركة مجالستي لأبي القاسم الجنيد رحمه الله.

وقال أبو القاسم الكعبى المتكلم المعتزلى: ما رأت عيناى مثله، كان الكتبة يحضرونه لألفاظه، والفلاسفة لدقة معانيه والمتكلمون لعلمه".

قال الخلدى: "قال الجنيد ذات يوم: ما أخرج الله إلى الأرض علمًا وجعل للخلق إليه سبيلا إلا وقد جعل لى فيه حظًا ونصيبًا".

أما عبادته وصلواته فكثيرة جدًا قد تستحيلها العقول وتستكثرها، ولكن الذى لا مرية فيه أنه تذوق العبادة فأصبح يشعر بلذة الاتصال بالله سبحانه وتعالى فى كل حين ويحس بحلاوة اللقاء معه، واللقاء لا يروق أمام الناس مثل ما يروق فى الخلوة، فكان يخلو بنفسه ساعات طوالا ويناجى الله تعالى ويتقرب إليه، قال الخلدى: "وبلغنى أن الجنيد كان فى سوقه وكان ورده فى يوم ثلاث مائة ركعة وثلاثين ألف تسبيحة، وسمعته يقول: ما نزعت ثوبى للفراش منذ أربعين سنة، ومكث (الجنيد) عشرين سنة لا يأكل إلا من الأسبوع إلى الأسبوع، ويصلى كل ليلة أربع مائة ركعة".

قال أبو الحسن المحلبى: قلت للجنيد: ممن استفدت هذا العلم؟ قال: "من جلوسى بين يدى الله تعالى ثلاثين سنة تحت تلك الدرجة" وأومأ إلى درجة فى داره.

قال إسماعيل بن نجيد: كان الجنيد يجىء كل يوم إلى السوق

فيفتح حانوته فيدخل ويسبل الستر ويصلى أربع مائة ركعة.

وقال أبو بكر العطار: "حضرت الجنيد عند الموت فى جماعة من أصحابنا فكان قاعداً يصلى ويثنى رجله كلما أراد أن يسجد، فلم يزل كذلك حتى خرجت الروح من رجله فثقلت عليه حركتها فمد رجليه وقد تورمتا فرآه بعض أصدقائه فقال ما هذا يا أبا القاسم، قال هذه نعم الله، الله أكبر، فلما فرغ من صلاته قال أبو محمد الحريرى: لو اضطجعت؟ قال: يا محمد، هذا وقت يؤخذ منه، الله أكبر، فلم يزل كذلك حتى مات".

أرأيت هذا الانهماك فى الصلاة والاشتغال بالدعاء والعبادة إن ذلك قد لا يتيسر لكثير من العباد الزاهدين، فليس ذلك إلا فضل الله، يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم، وبهذه النفس الزكية، والقلب الصافى يستطيع الربانى أن يوجه المجتمع ويربيه على التقوى، والمعانى الإنسانية السامية، والأخلاق الكريمة الفاضلة، وبهذا اللون من العيش يقدر على تخريج جيل مؤمن قوى الإيمان، قوى العقيدة، راسخ العلم، كبير النفس، زكى القلب، وهناك يقوم مجتمع إسلامى تسود عليه روح التقوى والإنابة إلى الله فى كل شىء وتستولى عليه النزعة الدينية السليمة التى تذوب أمامها الفروق، وتتلاشى فى نظرها الحدود والثغور والألوان والأوطان، فلا ترى الفضل إلا فى موضع واحد، وهو القلب إذا امتلأ بتقوى الله، واطمأن بذكره.

وعاش الجنيد فى بغداد يصف الدواء للقلوب المرضى ويدعو الناس إلى ما يصلح فسادهم ويقيم عوجهم، ويجعلهم قائمين بأمر الله، متمسكين بحبله دون أن تعبث بهم الأهواء وتضلهم الاتجاهات والميول الزائفة، فأنار الجوانب المظلمة فى حياتهم، وألان القلوب القاسية بتوجيه حلاوة الإيمان ولذة الحنان إليها، وأقام مجتمعًا مثاليًا ملأ الأجواء بنور الإيمان والعقيدة، وقضى على كل داء أصاب النفوس وحرك كل ساكن وأذاب كل جامد من أعضاء المجتمع الذين انعزلوا عن معترك الحياة، وسايروا الأوضاع والظروف وظنوا أن الحياة فى الانفصال والانعزال.

وظل الجنيد ينفى هذا الظن الخاطىء، ويزود الناس بزاد التقوى والإيمان إذ أنه أبصر بنور قلبه مالم يبصره الناس بعيونهم. وأدرك السر فى انحراف القلوب فكشفه بقوة الإخلاص، وعزة التفانى فى ذات الله سبحانه وتعالى، وهكذا استطاع أن يؤدى واجبه، ويطهر المجتمع الإسلامى من كل ما علق به من زيغ وفساد.

من كلام الجنيد رحمه الله:

قيل له كيف الطريق إلى الله؟ فقال: توبة تحل الأصرار وخوف يزيل العزة، ورجاء مزعج إلى طريق الخيرات، ومراقبة الله فى

خواطر القلوب.

وقال: الزهد خلو القلب مما خلت منه اليد، واستصغار الدنيا ومحو آثارها من القلب، وقال: الخوف توقع العقوبة مع مجارى الأنفاس، والخشوع تذلل القلوب لعلام الغيوب، والتواضع خفض الجناح ولين الجانب.

وقال: اليقين استقرار العلم الذى لا يتقلب ولا يحول ولا يتغير فى القلب، وقال أيضا: اليقين ارتفاع الريب فى مشهد الغيب.

وقال: المسير من الدنيا إلى الآخرة سهل هين على المؤمن وهجران الخلق فى جنب الحق شديد، والمسير من النفس إلى الله صعب شديد، والصبر مع الله تعالى أشد. وقال: الصبر تجرع المرارة من غير تعبيس.

وقال: الإخلاص سر بين الله وعبده لا يعلمه ملك فيكتبه ولا شيطان فيفسده ولا هوى فيمليه، وسئل عن الحياء فقال: رؤية التقصير ورؤية الآلاء يتولد منهما حالة تسمى الحياء.

قال أبو عبد الرحمن السلمى سمعت جدى إسماعيل بن نجيد يقول: دخل أبو العباس بن عطاء على الجنيد وهو فى النزع فسلم عليه فلم يرد عليه، ثم رد عليه بعد ساعة وقال: اعذرنى فإنى كنت فى وردى، ثم حول وجه إلى القبلة وكبر ومات.

وقال أبو محمد الحريرى: كنت واقفا على رأس الجنيد فى وقت وفاته وكان يوم الجمعة وهو يقرأ القرآن، فقلت: يا أبا القاسم ارفق بنفسك فقال: يا أبا محمد ما رأيت أحدا أحوج إليه منى فى هذا الوقت، وهو ذا يطوى صحيفتى.

هذا أبو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد الذى عرفه العالم بالإمام الربانى، وسيد الطائفة ومقدم الجماعة، لقد اتصل بالله سبحانه وتعالى وحمل لواء الحب والمعرفة، وربط حياته بذات الله تعالى وتواضع له، فرفعه الله، ورزقه من القبول والخلود ما جعله من الخالدين الأبرار، والصالحين الأخيار.

لندرس حياته من مرآة الشهادات التى مرت، ونتبين مكانته من كلامه الذى قرأناه آنفا، فسنجد فيه ما ندرك به حقيقة التوصل إلى الله ولذة التقرب إليه، وحلاوة التفانى فى حبه وذاته.

* * *

(٢)
ساعة مع الشيخ
شرف الدين يحيى المنيرى

فى الأسبوع الأخير من شهر شعبان سنة ٦٦١هـ انجبت قرية "منير" رجلا عظيمًا من رجال التاريخ، نابغة فى العلم والتقوى، عبقريًا فى مؤهلاته ومواهبه، فذًا فى خدماته الواسعة للعلم والدين، ألا وهو العارف الكبير الشيخ أحمد شرف الدين يحيى الذى اجتمعت فيه صفات كثيرة من علو الهمة والطلب الصادق وعاطفة الحب ربته على معان سامية للحياة ومفاهيم عالية للعلم، وتفكير واسع فى النفوس والكون .

أقبل على اكتساب العلم الصحيح، والمعرفة القوية منذ نعومة أظفاره بشغف لا نظير له فى عالم المعاهد والمدارس وعمق لا مثيل له فى دنيا الدرسات والاختصاصات، دخل فى الكتاب ورأى أن الطلبة يحفظون متون الكتاب وكلمات اللغة على عادة المدارس الإسلامية يوم ذاك، وذلك ما يستنفد جميع أوقاتهم ويستغرق فرصهم ومواهبم، فكره ذلك منهم وانتقد هذا الأسلوب من التعليم وتأسف على استعمال قوة الذاكرة فى غير محلها إذ كان يرى أن القرآن هو الذى يجب أن يحفظ ويبذل له الوقت

والجهود.

ينتمى نسبه إلى زبير بن عبد المطلب الهاشمى القرشى، وكان جده الأعلى الشيخ محمد تاج الفقيه من كبار العلماء والمشايخ فى عصره، هاجر من مدينة "الخليل" التى كانت من مدن الشام، وانضمت اليوم إلى المملكة الأردنية الهاشمية - إلى الهند وتوطن فى قرية "منير" قريبة من عاصمة "بهار" إحدى الولايات الهندية أيام السلطان شهاب الدين الغورى فى القرن السابع الهجرى.

ولما انتهت دراسته فى كتاب وطنه وقرأ فيه من العلم ما شاء الله أن يقرأ اتفق أن مر على قريته رجل كبير من رجال العلم والتدريس فى إحدى رحلاته والشيخ شرف الدين أبو توامة الذى كان يعد فى طليعة العلماء والمشائخ فى ذلك العصر، فزاره الشيخ أحمد شرف الدين وقضى معه سويعات انكشف له فيها فضله ونبوغه وكان له تأثير عميق فى نفسه إذ رأى فيه عالمًا كبيراً ورعًا تقيًا فأعجب به وقال: إن هذا الشيخ ممن يجب أن أدرس عليه، وأكمل دراسته العلوم الدينية على يديه، واستأذن أبويه ليلازمه إلى مقره حيث يشتغل عنده لتكميل العلوم الدينية والاستفادة منه.

وطلب منه الشيخ شرف الدين أبو توامة ملازمته إباه ليتمكن من إتمام دراسة العلوم الدينية والاستفادة منه فقبل هذا الطلب

برحابه صدر، ولما وصل إلى مقره وبدأ الدراسة علم أن الشيخ شرف الدين أبو توامة من أجلة العلماء الربانيين الذى يجمع بين علم الظاهر وعلم الباطن، يقول وهو يبين انطباعاته نحوه: لقد كان الشيخ شرف الدين أبو توامة عالمًا عظيم الشأن غزير العلم يشار إليه بالبنان فى البلاد الهندية ولم يكن يدانيه يومئذ من العلماء والمشائخ أحد.

فكان يعد هذه الفرصة نعمة كبيرة من الله وكان يعرف قيمتها حتى لم يرض أن تضيع منها لمحة فى غير استفادة، ومما يدل على انهماكه فى طلب العلم وشغفه أنه لم يحضر لتناول الطعام على المائدة العامة أبدًا لأن الأكل على المائدة يستغرق وقتًا أطول من الأكل وحده فى غرفته وهكذا كان يوفر لمحاته ويبذلها فى الدراسة والرياضة والمجاهدات.

يتحدث التاريخ: أن الشيخ المنيرى جمع كل الرسائل والخطابات التى كانت تصله من أهله وإخواته فى كيسة دون أن يقرأها وذلك لئلا يكون خلل أو قلق واضطراب مما إذا كان فيها بعض ما يقلقه أو يسلب طمأنينته.

وعندما انتهت دراسته للعلوم الدينية لدى الشيخ شرف الدين أبو توامة أراد أن يرجع إلى وطنه حيث يلقى والديه وإخوانه فاستأذن الشيخ وأبان عليه ما كان يريده من العودة إلى الوطن، ولكن الشيخ لم يرض بأن يأذن له دون أن يرتبط مع التلميذ

النجيب بقرابة ظاهرة مع قرابة العلوم والتقوى، وزوج معه ابنته التى أنجبت له ولدًا ذكيًا عرف بالشيخ زكى الدين فيما بعد..

ولكن الشيخ أحمد شرف الدين لم يطمئن إلى ما حصله من العلوم الظاهرة وما زالت تحثه شرارة كامنة فى نفسه الطموح إلى الزيادة والاستفاضة، همة عالية، وهم بعيد، وطلب صادق وحب إلهى لم يأذن له فى أى حال أن يكتفى بما تعلمه، ويشتغل فى تدريس العلوم كعادة العلماء فى عصره وسافر إلى دهلى - مركز العلم والعلماء ومصدر الإشعاع الروحى يومئذ - تاركًا أهله ووطنه.

وصل إلى دهلى فوقع اختياره على الشيخ نظام الدين الدهلوى وحضر فى مجلسه فرحب به ودار بينه وبين الشيخ كلام حول بعض المسائل العلمية فعرف فيه الشيخ العلم والاطلاع على العلوم الدينية وتأثر بذلك، ورده قائلا: "من سوء حظى أنى لا أقدر على تربيتك فإن مكانتك رفيعة" ورجع من دهلى إلى "بانى بت" حيث لقى الشيخ بو على ولكنه لم ينجح أيضًا فيما أراد من البيعة لما رآه مغلوب الحال لا يقدر على تربيته غيره.

وتسرب إلى نفسه يأس من وجود شيخ يبايع على يده، وحزن بذلك، ولكن الله تعالى هداه إلى شيخ آخر كان يشغل منصبًا عاليًا للمعرفة والتقوى فى دهلى وهو الشيخ نجيب الدين الفردوسى الذى نال عنده ما كان يبحث عنه وتحققت لديه أمنيته

فبايع على يديه، ومن ساعته أجازه الشيخ وأعطاه سند الإجازة مكتوبًا على ورقة، فتحير به الشيخ أحمد المنيرى وقال له: إننى لم أقض معك وقتًا ولا حصلت منك دروس الإرشاد والسلوك، فكيف أستطيع أن أتحمل هذه المسئولية الضخمة، وأقوم بواجبى نحو هذا العلم الروحى؟ قال له الشيخ نجيب الدين: إن هذا أمر من عند الله لم أفعله من نفسى، وإنما هى إشارة غيبية أمرتنى بذلك.

ورجع الشيخ أحمد شرف الدين بأحوال عجيبة، وقلب ملىء بعاطفة من الحب والعشق، ولوعة من الإيمان والحنان وإذا به لا يطمئن إلى حال ولا يقر له قرار، وإنما هى نشوة وهبها الشيخ نجيب الدين بإشارة غيبية، يقول الشيخ أحمد المنيرى: "زرت الشيخ نجيب الدين الفردوسى فإذا أنا بوجد من الحب ولوعة من العشق تمكن فى قلبى، ولا يزال يزداد ويتضاعف على مر الأيام".

وعندما مر الشيخ أحمد المنيرى فى طريقه إلى الوطن على إحدى الغابات وسمع أصوات الطاووس اضطراب لذلك ووجد قلبه امتلأ حبا وحنينًا وعيل صبره، فتوجه إلى الغابة ليخلو فيها بنفسه فى ركن من الأركان، ويختفى من أعين الناس وقد بحث عنه الناس كثيرًا ولكن جهودهم ذهبت سدى، وبقى الشيخ يعيش فى الغابة معتزلا عن الناس تاركًا الدنيا ومباهجها إلى أن مضت مدة طويلة على هذه الحال الغريبة، والخلوة المضنية، يقضى الحياة

فى الرياضات والمجاهدات والمراقبات، وفى العزلة والإعراض عن الجاه والمال، وفى الحب الغرام، والحيرة والهيام، وكل ذلك أدى إلى بلوغه منزلة عليا من التصوف والإحسان والتقرب إلى الله تعالى والإعراض عن الدنيا والإقبال على الدار الآخرة، ولكنه استقل هذه المجاهدات الشاقة، واستهان قيمتها، ويقول فى مناسبة:

"إن الرياضات والمجاهدات التى قمت بها لو كان الجبل أداها لذاب من شدتها غير أن شرف الدين - يريد نفسه - لم يتغير ولم يك شيئًا".

ومن أبرز صفاته وخصائصه التى دخلت فى طبيعته هى التفانى فى حب الله ورسوله وعدم الاعتداد بالنفس ولا شك فى أن ذلك من ثمرات المجاهدات والرياضات الشاقة التى قام بها الشيخ أحمد المنيرى، يقول فى إحدى المناسبات وهو يتحدث عن أمنيته:

إن من أمنيتى أن أفنى ولا يبقى لى أثر من الآثار، فى هذه الدنيا ولا فى الآخرة. ويقول: مازال الشيطان يلعب بى ويغرينى حتى ما عرفت نفسى ولا رأيت من الإسلام أثرًا فى شخصى.

وكتب فى إحدى الرسائل التى كان يوجهها إلى إخوانه ومريديه، يبكى على حاله ويتأسف على ما ضاع من عمره يقول: "يقول العارفون، والله ما من شىء أحب إلى الله من بكاء العبد

على حاله فيجب على العلماء والصلحاء أن يتعلموا البكاء من أويس القرنى، إن الذى لا يبكى على حاله ولا يفكر فى نفسه إنما هو أحد الغافلين عن يوم القيامة وقلبه ميت لا يملؤه إلا الحسرات، وما لهذه الأمانى الكاذبة التى يحملها كل واحد منا اليوم، فيحب أن يتبوأ على مناصب الدنيا العالية ويكون أمره مطاعًا فى كل طبقة، وأن تنهال عليه النعم واللذات من كل جانب، ويستقبله الجاه والمال من كل ناحية، ثم هو يدعى مع كل ذلك أن له علاقة بالله تعالى، علاقة الحب والعشق".

إن المنزلة الرفيعة التى بلغها الشيخ أحمد المنيرى مكنته من إفادة خلق كثير لا يحصيهم إلا الله، وإرشادهم إلى طريق كله حق وخير، والذين بلغوا إلى درجة الكمال والمعرفة عن طريقه يربو عددهم على ثلاثمائة رجل.

وكلماته الواضحة وخطاباته التى كان يلقيها فى مجالسه العامة فى كل يوم تعد من أهم مبادئ الإصلاح والإرشاد وكانت تحتوى على معانى دقيقة ومفاهيم عالية للحياة والإنسان والكون.

أما رسائله التى بعثها إلى إخوانه ومريديه فتحمل من نكات التصوف وحقائق الإحسان ما يحير العقول ويأخذ بمجامع القلوب.

أمارسائله التى وجهها إلى بعض الأعيان ـ وبخاصة إلى القاضى شمس الدين حاكم مدينة جوسه ـ فإنها تجمع بين غزارة

المعانى العميقة والحقائق الدينية وبين قوة التعبير وجمال الأسلوب وعذوبة النغمات، وهى لا تزال غرة فى جبين المكتبة الإسلامية وزينة لذخائر المعارف الدينية والأدبية وهى معين لا ينضب على مضى الأيام، ومدد لا ينفد لمن أراد أن يذكر أو حاول أن يستفيد.

ونظرة واحدة على هذه الرسائل تبدى روحها الخالص والدافع الذى يعمل فيها هو دافع الحب والمعرفة والإخلاص الذى لا يوجد له نظير إلا نادراً، وهو الذى أحدث فيها تأثيراً قويًا، وجعلها كلمة باقية فى عقبه، فلا يقرؤها أحد إلا ويجد نفسه قد تخلصت من جميع الشوائب، وتجلى قلبه لإدراك الحقائق العلوية والمعارف الروحية، إنه يرى فى مرآتها ضآلة الدنيا وقصر عمرها ويتبين فى ضوئها غرورها وسرابها الذى يخدع الأعين والأبصار.

كما يستطيع القارئ لهذه الرسائل أن يقدر بها علو مكانة الأولياء والعارفين فى هذه الأمة، ويستطيع أن يطلع على حقائق الحياة التى عرفوها وتذوقوها واصطبغوا بصبغتها، فهم الذين تذوقوا الإيمان والمعرفة والحب، وارتفعوا من حضيض الأرض إلى أوج السماء، ومن خسة الأخلاق وظلمة الحياة إلى مكارم الأخلاق ومنابع النور.

أقول منابع النور، ولا شك، فإن هؤلاء العارفين كانوا يسبحون

فى منابع النور حكمة وعلما، وإذا صفا القلب من الشوائب وتزكت النفس وتجلت الروحانية أصبح الإنسان أفضل من الملائكة، وأرفع من جميع الخلق، إنما هو القلب "تلك المضغة من اللحم" إذا تنور وانكشف عنه الغطاء صار مركزا لكل معنى كريم، وخلق نظيف، وعمل جليل وحكمة عظيمة، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا.

أى والله إنها حكمة وحنان، ونور وبرهان، وروح وإيمان، تتجمع فى قلب العارف بالله، فإذا هو إنسان يحبه الله، ويحب الله، وهو الذى يقدر على أن يقوم فى خلق الله فيفحص الداء بإذنه، وينقذ القلوب المرضى، والعقول العفنة من علائق تهوى بها إلى هاوية سحيقة لا منجى منها إلا الله. إن هذا العارف هو الذى يقوم بجلائل الأعمال وعظام الأمور التى قد ينوء بها العصبة أولو القوة من الرجال، ولكنه يباشرها وحده دون نظر إلى مساعدة أو حرص على عون، فتكون مفخرة تخلد فى التاريخ، ومأثرة ينقلها الأجيال والأمم من عصر إلى عصر، ومن مكان إلى مكان، ويردد صداها الشعوب الإسلامية بأسرها.

إن هذه الرسائل لا تبحث فى موضوع واحد، ولا تدور حول نقطة واحدة ولكنها تواجه المواضيع الحية كلها، وتبحث فى الحقائق الإنسانية فتحل العقد، وتفك المعضلات وتعالج المشكلات التى تبقى لغزا من الألغاز عند كثير من الناس.

يقول الأستاذ الكبير السيد أبو الحسن على الحسنى الندوى فى كتابه "تاريخ دعوت وعزيمت" وهو يتحدث عن هذه الرسائل وما تحويه من معان ومواد غزيرة:

"إن من يحظى بمطالعة هذه الرسائل ودراستها يعلم جيدا أن العلوم الرفيعة والنكت الدقيقة والحقائق العميقة التى تحتوى عليها تلك الرسائل لم تكن نتيجة غزارة علم أو كثرة دراسة وإنما هى نتيجة تجارب واسعة شخصية مر بها وذوق وإيمان، وكل ما كتبه الشيخ المنيرى حول عظمة الله وجلالة شأنه وغنائه عن الخلق، وحكمه وعلوه، وما يتعلق بالمؤمن المخلص من أحوال الخوف والرجا، وما يعيش فيه العارفون والربانيون من لوعة العشق وحرارة الحب، ومن الأحزان والأفراح، وما تجيش به رحمة الله على العباد، وحاجة العبد إلى التوبة والإنابة دائما، إنما مرد ذلك كله هو العرفان بأسرار الكون والاطلاع على الحقيقة.

أما ما كتبه حول الإنسانية ومكانتها، والقلب وعظمته والحب وقيمته والإنسان وسموه ونزاهته، وعلمه وفراسته، وعلو الهمة وقوة الطلب فيصلح أن يوضع فى مصاف الكتابات العالية التى لا تصدر إلا من القلب ولا تؤثر إلا فى القلب كذلك [١].

وفيما يلى نماذج من رسائله، وبها يتبين مدى قوتها

---

(١) تاريخ دعوت وعزيمت جـ ٣ ص ٢٤٧.

وتأثيرها، ولربما تكون الترجمة قد أفقدت كثيرا من روائها وقوتها:

يقول فى رسالة وهو يتحدث عن استغناء الملك الجبار الذى لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، وهو الذى يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويرزق نعمة الإيمان من يشاء ويحرمها من يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء:

"هل هناك من يستطيع أن يسأل الله سبحانه عما إذا رزق نعمة لواحد وحرمها آخر، لماذا فعلت ذلك؟ كالسلطان فى الدنيا عندما يعز شخصا فيجعله من وزرائه وآخر يعينه للكناسة والحجامة، كذلك إذا أراد الله تعالى أن يرزق عبدا من عباده نعمة الدين يرفعه من حضيض الذل إلى أوج العز ويخرجه ممن لا شأن لهم فى الحياة، ولا يستطيعون أن يرفعوا رأسا إلى أى عز أو رفعة، فمن الذى يقدر أن يقول:

أهؤلاء من الله عليهم من بيننا إنه يريد أن يعز قاطع طريق عاش فى السيئات ويكسوه لباس الشرف والفخر فيفتح قلب فضيل بن عياض للإيمان ويشحنه بنور الهداية، ولكنه يأبى ذلك على باعورا الذى لم يبرح مصلاه أربعة قرون وبقى ساجدا عليه إلى مدة أطول لكى يصل إلى درجة العز والقبول، فيطرده من بابه رغم هذا الانهماك فى العبادة والاشتغال بالسجدات، إنه يحب عمر الذى هو مكب على عبادة الأصنام، فيهديه إلى طريق الحق ولكنه

لا يحب العزازيل الملك الذى يشتغل بالعبادة منذ سبعة آلاف سنة فيطرده من بابه، وليس هناك أحد ينكر على الله ذلك أو يسأله عما فعل.

إن نظرة الحب والرحمة تنظر إلى العيوب كمحاسن وترى النقص كمالا، والقبح جمالا، لقد كانت حفنة تراب ملقاة فى الطريق تطؤها الأقدام، ولكن نظرة واحدة للحب والرحمة حولتها إلى شىء أغلى من الخلق كله، وقال: إنى جاعل فى الأرض خليفة".

وفى رسالة أخرى يتحدث عن هذا الشأن فى أسلوب آخر، ويقول: افتح عين البصيرة وانظر إلى حسرة آدم واستغاثة نوح وتأمل فى عجز إبراهيم ومصيبة يعقوب، وغيابة جب يوسف، والمنشار على رأس زكريا والسيف فوق عنق يحيى عليهم الصلاة والسلام. وانظر إلى لوعة قلب محمد ﷺ وقلقه واضطرابه، واقرأ قول الله تعالى: ﴿كل شىء هالك إلا وجهه﴾.

ويقول فى رسالة مستفيضة وجهها إلى الشيخ قاضى شمس الدين المذكور فى مطلع الترجمة.

أيها الأخ العزيز، الطريق غير مأمون، والمنزل بعيد، والمطلوب شىء لا نهاية له، ولكن الجسم ضعيف، والقلب حيران، والروح حنينة، والرأس منكس.

فكم من ذخائر الطاعة والانقياد تهب عليها عاصفة، "وقدمنا

إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً" فتذهب أدارج الرياح، وكم من صدور عامرة بالحب والحنان يخر بها الأمر الإلهى، "وبدالهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون" ووجوه يصرفها فى اللحد من جهة القلبة، وعارفون يردهم من بابه فى أول ليلة من اللقاء وكم من قلب يقال له: نم كنومة العروس، وآخر يقال له: نم كنومة المنحوس، وأحيانا يردهم أقسى الرد فلا يقبل منهم بأى طاعة، وأخرى يقبل قبولا لا ينظر فيه إلى أى معصية ويحق لك أن تنشد:

فى وجهه شافع يمحو إساءته
من القلوب ويأتى بالمعاذير

انظر إلى إبراهيم خليل الله كيف يخرج من عبادة الأصنام إلى عبادة الله، واقرأ قوله تعالى: ﴿يخرج الحى من الميت﴾ وانظر إلى ابن نوح "كنعان" كيف يعصى الله ورسوله نوحا من بيته، واقرأ قوله تعالى: ﴿ويخرج الميت من الحى﴾ وهذا آدم أبو البشر كتب له الخلود حتى لم يؤثر فيه تقصيره وعصيانه، ولكنه طرد الشيطان من بابه فضل وغوى، وحمل من اللعنة مالم تغنه طاعاته الماضية، إنه عندما يبشر طائفة من عباده بقوله: ﴿لهم البشرى﴾ فإذا هو يعلن للمجرمين بقوله: ﴿لا بشرى يومئذ للمجرمين﴾ وكما أنه يذكر عباده الصالحين ويقول: ﴿سيماهم فى وجوههم من أثر

السجود﴾ كذلك يذكر العصاة المتمردين فيقول: ﴿يعرف المجرمون بسيماهم﴾.

فتذكر أيها الأخ، ولا تكن من الغافلين، وأقبل على عمل يكن لك ذخرا، وكن مع القلب منكسرا وخرابا.

وهكذا يحث أتباعه ومريديه بأنواع من الأساليب المؤثرة والبيان القوى على معرفة النفس، والاطلاع على الصلة بين العبد والمعبود وبين الخلق والخالق، وتدور هذه الرسائل فى أغلب الأحوال حول مواضيع حية ذات تأثير قوى، فلا يقرؤها أحد إلا ويجد قلبه متفتحا لقبول المعانى السامية والرقيقة من الإيمان والتقوى التى تصل القلوب بخالق القلوب وترفع النفوس إلى منزلة أسمى، ليس وراءها منزلة.

إننا إذا بحثنا فى هذا الموضوع لطال الكلام كثيرا، فنكتفى بهذا القدر الذى ذكرناه. ونستلفت القارئ إلى أن يتأمل فى معانى هذه الرسائل التى لم تصدر إلا من أعماق القلب، ويفكر فيما كان أهل القلوب يعيشون فيه من حياة مطمئنة لا خوف عليها ولا خطر، وذلك لما كانوا يتمتعون به من صلة قوية بالله تعالى، وعلم عميق بحكمته وشئونه وإيمان راسخ بقدرته وعظمته، وذلك هو الذى يبعثهم على إصلاح الفساد، وتقويم الزيغ فى المجتمع وغرس دوحة الإسلام والسلام فى العالم، وتمكين الأمن والطمأنينة فى القلوب.

وفى ٦ شوال من سنة ٧٨٢هـ استأثرت به رحمة الله بعدما عاش أكثر من قرن يوجه المجتمع، ويصلح القلوب ويزكى النفوس، وخلد فى تاريخ الهند الإسلامى العامر ذكرا لا يزال موعظة وذكرى للمتقين وآثارا باهرة للعلم والدين، لولاها لنقصت المكتبة الإسلامية على سعتها وحرمت غرر الفرائد الروحية وكان فراغا لا يملؤه الزمان.

هيهات لا يأتى الزمان بمثله إن الزمان بمثله لبخيل

* * *

(٣)
ساعة مع الشيخ فريد الدين الأجود هنى

الفتنة التتارية التى لا شك فى كونها شراً ووبالا على العالم الإسلامى قد حملت بعض الخير إلى المسلمين إذ أنها سببت هجرة بعض الأعلام إلى الهند وتوطنهم فيها ثم انتشار خيرهم وروحانيتهم فى أبنائها، ولولا هذه الفتنة العمياء لما جاء هؤلاء الهداة الروحانيون إلى هذه البلاد، ولم يكن لها من مآثرهم الروحية وجهودهم الإسلامية نصيب، ولكان لها شأن غير هذا الشأن.

ولكن شاءت الأقدار أن يقوم التتر بالسلب والنهب فى قلب العالم الإسلامى فيتوزع عباده المخلصون الربانيون إلى البلاد التى كانت فى حاجة إلى المصلحين وكانت تنتظر النور الإلهى الذى ينير السبيل ويهدى الناس إلى طريق الحق والعز والنجاح، وكان من بين هؤلاء المهاجرين الذين أقضت هذه الفتنة مضجعهم وأقلقت بالهم الشيخ القاضى، شعيب بن أحمد بن يوسف جد الشيخ فريد الدين مسعود، فقد هاجر مع أهله وماله من مدينة كابل إلى مدينة لاهور واتخذها موطنًا، وتولى منصب القضاء فى

مدينة كهنوال من أعمال الملتان التى تقع الآن فى باكستان.

وفى نفس تلك المدينة ولد الشيخ فريد الدين مسعود سنة تسع وستين وخمسمائة وسافر إلى الملتان وهو صبى حيث اشتغل بتحصيل العلم على أساتذة زمانه وقد ساعده الحظ فلقى بها الشيخ قطب الدين بختيار الذى توسم فيه علامات النبوغ والولاية فحثه على اكتساب علوم الدين، كما أعجب به الشيخ فريد الدين أشد الإعجاب مما جعله بايع على يديه وأراد أن يلازمه إلى مقره دون إتمام الدراسة، ولكن الشيخ قطب الدين منعه عن ذلك.

ولما تمكن الشيخ فريد الدين من إتمام دراسة العلوم الدينية ورد شرعة شيخه قطب الدين فى دهلى، فاختار له الشيخ مكانًا يبعد عن صخب الأسواق وجلبة الناس ليتسنى له فيه الذكر والرياضة والبلوغ إلى درجة المعرفة والسلوك فى أقرب مدة وقد كان ذلك فعلا، حتى إذا رأى الشيخ قطب الدين أن تلميذه بلغ إلى درجة عليا من المعرفة والإحسان، وهو الآن يقدر على إرشاد الناس، وهداية الخلق وتبليغ كلمة الله إلى القلوب شرفه بالخلافة وأجازه، ثم بعثه إلى مدينة "هانسى" حيث اشتغل بإفادة الخلق وإرشاد الناس وإصلاح القلوب.

يقول العلامة عبد الحى الحسنى صاحب نزهة الخواطر فى كتابه:

"ثم رحل إلى مدينة هانسى وأقام بها اثنتى عشرة سنة واشتغل

بالرياضة الشديدة والمجاهدة القوية فظهرت منه الخوارق والكرامات والتصرفات العجيبة وتقاطر عليه الناس فترك موضعه، وذهب إلى "كهنوال" فلبث بها زمانا".

وما أن أقام فى "كهنوال" مدة قليلة إذ طار صيته وتزاحم عليه الناس، من كل حدب وصوب، فلم يعجبه ذلك وارتحل منها إلى "أجودهن" اعتقادا منه أنها قرية لا يزال أهلها منطوين على أنفسهم، غير مقبلين على العلماء والشيوخ وربما لا يتيسر لهم المعرفة به، والتزاحم عليه، ولكن خاب رجاؤه فى ذلك وبدأ الناس يأتون إليه، ويجتمعون حوله، ويلتفون به، وازداد إقبال الناس عليه فى عدة أيام إلى حد أن الزائرين لا ينقطعون إلى الليل فيبقى الباب مفتوحا إلى نصف الليل.

وألقى الله تعالى فى روع الشيخ فريد الدين أن يشتغل فى إفادة الخلق وإجابة طلبهم إلى إصلاح النفوس وتزكية القلوب فأقبل على الفحص عن أدواء المجتمع وأمراض القلوب وتفقد الوضع الذى كان الناس يعيشون فيه، فوجد القلوب ظمأى إلى تعاليم الإسلام ووجد الناس حريصين على تعلم الدين، ورأى المجتمع فى حاجة إلى من يرشده إلى طريق أقوم، ومنهاج أفضل للحياة.

فأخذ الشيخ فريد الدين هذه المسئولية على عاتقه، وبايع الناس على الإيمان والتفانى فى سبيل الله، فلم يزل يتزايد

الإقبال عليه، ويأتيه الناس من كل فج ليبايعوه ويعاهدوه على الإسلام، فاستفادوا منه علم الباطن والتزكية الذى ساعدهم فى إنشاء مجتمع إسلامى سليم و إصلاح نزعات الجاهلية والضلال والوثنية والشرك التى كانت منتشرة فى ذلك العهد بوجه عام.

إن الشيخ فريد الدين يعتبر بحق مجدد الطريقة الجشتية التى أسسها الشيخ معين الدين السجزى فى القرن السادس الهجرى.

وهو الذى قام بدرى هذا الغراس الروحانى بروحيته القوية ومعرفته الكبيرة، وعلو كعبه فى العلوم الإلهية الربانية التى تصل العبد بربه، وتربط حياته برباط قدسى متين، وقد خلف لدعوته تأثيراً أبلغ فى القلوب لا يزال يلهب القلوب الجامدة، ويشعل فى النفوس شعلة الإيمان واليقين.

وبهذا التأثير الإيمانى العميق أثمر غراس الدعوة الإسلامية فى بلاد الهند وآتى أكله كل حين بإذن ربه، فقد نشأت جماعة من الدعاة والمربين الإسلاميين الذين كانوا أساس الصرح الإسلامى فى الهند، وبفضلهم بقيت كلمة الله تعلو ودعوة الإسلام تأخذ مكانتها اللائقة فى الهند، ولولا فضلهم وجهادهم ولولا تضحياتهم وإيثارهم لما كان الإسلام يتمتع بأتباعه ومعتنقيه فى بلاد وثنية خالصة، ولم يكن للجيل الإسلامى إلا اسمه أو رسمه، ولكانت المعابد والمعاهد الإسلامية الدينية قد تحولت إلى آثار تاريخية ومتاحف أثرية يزورها السياح.

والحياة التى عاشها الشيخ فريد الدين كلها فقر وزهد وكلها رياضة ومجاهدة لا تتيسر لكل من تصدى للدعوة وقام بها، إنها حياة مثالية رائعة، تستطيع أن تدرك بها نسمات الجنة فى الدنيا، وتنال الفضل الربانى فى كل حين.

يقول مؤرخه الشيخ محمد مبارك العلوى فى كتابه "سير الأولياء" كان يغلى ثمر الأراك فى قدر فيأكله الشيخ فريد الدين ويوزعه بين الفقراء والخدم، وذات مرة جيء بالطعام وهو صائم فلما أراد أن يجعل اللقمة فى فيه إذا هو أمسك، وقال: إنى لمست اليوم فى هذا الطعام شيئًا يمسكنى عن الأكل فأجاب الخادم إن الملح الذى ألقيته فى الطعام كان مستدانا، فقال إذن لا يجوز لى أكله.

والقصص من هذا الشأن كثيرة، وكلها تدل دلالة واضحة على أن هذا الشيخ برغبته عن الدنيا وما فيها وإعراضه عن الجاه والمال والمنصب والسلطان قام بأعمال جليلة وإصلاحات عظيمة فى تاريخ الهند الإسلامى، وأقام صفحة رائعة خلدها الدهر، وأبقاها التاريخ للجيل المسلم الجديد.

ومرة بعث إليه السلطان ناصر الدين محمود هدية من المال والعقار وذهب بها إلى حضرة الشيخ نائبه غياث الدين بلبن فلما قدم إليه الهدية نظر الشيخ إلى اليمين والشمال فأخذ هدية المال ووزعها بين الفقراء وذوى الحاجة من ساعته ورد هدية العقار

قائلا إنها لا تليق بنا.

وكان السلطان غياث الدين بلبن يحب الشيخ فريد الدين ويبجله ويعتقد أن دعاء الشيخ هو السبب فى حصول العز والجاه له، فكان يرى من سعادته أن يقف أمام الشيخ موقف الخادم الحقير، ويترقب الفرص ليقوم فيها بخدمة خدم الشيخ وأتباعه.

وقد كتب إليه الشيخ فريد الدين كتاب توصية عندما ألح عليه بعض خدمه:

"رفعت قصته إلى الله ثم إليك فإن أعطيته فالمعطى هو الله وأنت المشكور وإن لم تعطه شيئًا فالمانع هو الله وأنت المعذور".

ومن كلامه:

إن الله سبحانه يستحى من العبد أن يرفع يديه ويردهما خائبتين، ومنه أن الصوفى يصفو له كل شىء ولا يكدره شىء، وقال: الصوفى من رضى بالموجود ولا يسعى بطلب المفقود، وقال: لو أردتم أن تبلغوا درجة الكبار فعليكم أن لا تلتفتوا إلى أبناء الملوك، وقال: أرذل الناس من يشتغل بالأكل واللباس[1].

ومما يمتاز به الشيخ فريد الدين عن معاصريه هو ما كان يتمتع به من عاطفة التفانى فى حب الله ورسوله، ولوعة العشق الربانى التى كانت تشعل فيه جذوة الإيمان والإخلاص وشرارة

(١) نزهة الخواطر جـ ١ ص١٣٢.

الحب والحنان، قلما يوجد لها نظير فى الشيوخ الآخرين فى عهده، تلك هى ميزة جعلته يربى الشيخ نظام الدين والشيخ علاء الدين على صابر اللذين بلغا إلى ذروة العز والمجد، وقاما بخدمات عظيمة فى حقل الدعوة الإسلامية التى كانت بحاجة ماسة فى ذلك العصر إلى أولياء مخلصين يضحون فى سبيلها كل جهد وطاقة، ويستنفدون فى تقويتها وتبليغها جميع ما يملكونه من مواهب وصلاحيات وقد نالت الدعوة الإسلامية بفضل هذا الشيخ العظيم جنوداً من رجال أكفاء، وتأصلت جذور الطريقة الجشتية فى الهند ولا تزال تؤدى دورها فى خدمة الدين الحنيف.

(توفى سنة ٦٦٤هـ وعمره ٩٥سنة)

* * *

(٤)
ساعة مع الشيخ معين الدين السجزى
(٥٣٧هـ ـ ٦٢٧هـ)

شاءت الحكمة الإلهية أن تتحرر بلاد الهند من ربقة الوثنية والشرك ويجد الإيمان والإيثار، والعقيدة والدين طريقا سهلا إلى ربوعها وبقاعها، وشاء القدر الإلهى أن تعم فى أرجاء هذه البلاد كلمة الإسلام وتنتشر فى أنحائها دعوة محمد عليه الصلاة والسلام.

فقد شهدت الهند فى القرن السادس الهجرى فتنة عمياء لا تفرق بين الخير والشر، ولا تميز الحق من الباطل، وعمت فوضى فكرية واجتماعية فى البلاد لم تترك للناس مذاهب الخير والفضيلة، ولم تدع لهم علالة للتفكير فى الحياة الإنسانية وصلتها بالله تعالى، وتسربت إلى النفوس عقائد فاسدة، وعادات سيئة جعلت الحياة مجموعة من الخرافات الجاهلية.

دخل السلطان محمود الغزنوى فى الهند فاتحا وأخضعها للإسلام وأسس دولة قامت على مبدأ العقيدة والتقوى كان الإسلام فيها دين الدولة الرسمى ولكن تم هذا التأسيس على يد السلطان شهاب الدين الغورى فى القرن السادس الهجرى، كما

قدر الله تعالى للشيخ معين الدين السجزى الجشتى أن يقوم بغراس الإيمان فى قلوب الناس وفتحها للإسلام، وهكذا قامت فى الهند دولة روحية لا تضارعها دولة مادية فى السلطان والقوة والتأثير، وتم فتح هذه البلاد الروحى على يد الشيخ معين الدين وهو صاحب الفضل فى إنشاء مجتمع إسلامى سليم وتعمير هذه البلاد بعد إقفارها.

ولد الشيخ معين الدين سنة ٥٣٧هـ ببلدة "سجستان"، وسافر إلى سمرقند حيث حفظ القرآن وقرأ من العلم ما أمكن له، ثم سافر إلى بلاد أخرى ودخل قرية هارون من أعمال نيسابور وأدرك بها الشيخ عثمان الهارونى فلازمه وأخذ عنه الطريقة، وصحبه عشرين سنة، ثم قدم الهند وأقام بمدينة لاهور ما شاء الله أن يقيم، ثم قدم دهلى ومنها توجه إلى أجمير وسكن بها، فأسلم على يديه خلق كثير، وله من الكرامات والمناقب ما يعجز عنه البيان [١] جاء الشيخ معين الدين والهند غارقة فى عقائد فاسدة وتقاليد منكرة، وعادات سيئة وكان أولياء الشيطان يلعبون بعقول الناس وأفكارهم، إنهم أقاموا فى الناس طبقات متعددة ودرجات مختلفة، سببت تفاوتًا بين الطبقة والطبقة، والفرد والفرد واللون واللون، فالطبقة العليا لا ترى للطبقة الدنيا حق الحياة والعيش ولا تسمح لها بالبقاء فى المجتمع كالبشر لهم عزتهم

[١] من نزهة الخواطر للعلامة عبد الحى الحسنى باختصار.

وكرامتهم وكان أصحاب السلطة والحكم يصبون على الرعايا من الظلم والجور ما تقشعر منه الجلود.

ولكن الأوضاع تغيرت بفضل هذا الشيخ الربانى ورجع المنكر أدراجه عندما بدأ عمله فى مجتمع العصر، فقد روى لنا التاريخ أن الهند كانت تحت حكم برتهوى راج والى أجميرو دهلى فى عصر الشيخ معين الدين، وكان هذا الوالى يتمتع بقوة عظيمة وسلطة نادرة حتى إنه لم يتشجع أحد من الملوك أن يقوم بمقاومته ويتحارب معه إلى أن جاء السلطان شهاب الدين الغورى وشن عليه حملة شعواء فانهزم لأول وهلة بكثرة جنود المخاصمين ولكنه لم يتقاعس ولم ييأس واستدعى الشيخ معين الدين لنجاحه وانهزام عدوه وقام بحملة أخرى مع مائة ألف مقاتل ولم يكتف الشيخ فى هذه الحرب الحاسمة بالدعاء وإنما شارك السلطان فى القتال مع العدو وغلب عليه ورجع فاتحًا منصورًا.

ولم يكن ذلك فتحًا للسلطان شهاب الدين ولا فتح الهند فقط، بل كان فتح القلوب إيذانًا بأن كلمته هى العليا، وكان النواة الطيبة لعمل الدعوات الإسلامية فى المستقبل، واللبنة الأولى لبناء مجتمع صالح أفضل فى هذه الديار فازدهر الإسلام فى الهند، وارتفعت كلمته بعد أن حاول المتزمتون الرجعيون اقتلاع آياتها ومحو معالمها من القوالب والقلوب.

ولما تحقق للشيخ معين الدين ما أراده من اقتلاع جذور الفتنة

التى كانت تعانيها هذه البلاد وتمر بها فى رحلتها الطويلة وتاريخها الملىء بالبطولة والنجدة والشهامة، أقبل على إصلاح الأوضاع وتقويم العادات، وتصحيح العقائد حتى أسلم على يده خلق لا يحصيها إلا الله، واهتدى عن طريقته ألوف مؤلفة من بلاد الهند وما والاها من البلدان وساد فى المجتمع الهندى الإسلامى جو من الطمأنينة والهدوء ورجع الضلال طريقه بعد أن تمكن فى قلوب الناس واستقر فى نفوسهم، احتل مكانه إيمان بالله ورسوله، ووقر فيهم الحق ورسخت تعاليم الإسلام فى القلوب ما تمكن به الشيخ من تحويل الحياة من طريق إلى طريق، ومن حالة نزعات الكفر والباطل إلى نزعات الخير والحق.

يتحدث الشيخ محمد مبارك العلوى فى كتابه "سير الأولياء" عن الشيخ معين الدين، فيقول: كانت بلاد الهند إلى أقصى حدودها الغربية مأوى الكفر والوثنية، فقد كان المتمردون ينادون بـ "أنا ربكم الأعلى" ويشركون مع الله آلهة أخرى ويسجدون للحجارة والتراب والشجر والدواب، أقفلت ظلمة الكفر قلوبهم، غافلين عن الدين والشريعة، جاهلين عن الله والرسول، ولم يعرفوا القبلة ولا سمعوا صوت الله أكبر قط، إنهم كانوا يتخبطون فى المجاهل والضلالات، إذ جاء الشيخ معين الدين فانقشع السحاب وتبدد الظلام، وسطع نور الإسلام وبدل الأرض غير الأرض واختفى الشرك والمشركون فى غياهب الزمان،

وقامت المساجد والمنابر التى ارتفع منها صوت الله أكبر، وكل من تمتع بنعمة الإسلام فى هذه البلاد يتمتع بها إلى يوم القيامة يزيد فى حسنات الشيخ معين الدين ويسبب له أجرًا مستمرًا إلى يوم الدين.

يقول مؤلف "سير الأقطاب": "ومن فضله انتشر الإسلام فى الهند، وتبددت ظلمات الكفر ـ كما يقول أبو الفضل فى كتابه "آئين أكبرى" وهو يتحدث عن الشيخ معين الدين: "إنه أقام فى أجمير حيث أضاء شمع الإسلام ونور القلوب بنور الإيمان ومن بركاته ويمن طالعه دخل الناس فى دين الله أفواجًا، وتشرفوا بنعمة الإسلام".

إن الهند وكل من يعيش فيها من المسلمين يدين لهذا الشيخ العظيم فليس أثر من آثار الحياة الإسلامية، ولا معلم من معالمها إلا ويرجع فيه الفضل إلى الشيخ معين الدين وإن التاريخ لا يستطيع أن ينسى أياديه على هذه البلاد على مر الأيام والليالى، وإنما هو ممن خلدوا على صفحات الدهر ذكريات ومفاخر يزيدها الأيام صفاء وجلاء.

وقد خلف الشيخ معين الدين فى أعماله وجهاده ودعوته الشيخ قطب الدين بختيار الذى أقام فى دهلى وقام بدعوة الإسلام الحنيف فى الناس وأفاد منه خلق كثير وامتدت الطريقة الجشتية إلى أن بلغ ذروة العز والقبول وأفاد منها العالم بأجمعه ولا

يزال.

توفى الشيخ معين الدين سنة ٦٢٧هـ بعدما قضى حياة حافلة بجلائل الأعمال وعظائم الأمور واشتغل فى توجيه الخلق وإرشاد الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور نحو نصف قرن، وقد تأصل غراس دعوته وجهاده فى أرض الهند، وأثمر ثمارًا يانعة اجتناها خلفاؤه من بعده وأضاءوا الطريق لمن خلفهم.

* * *

(٥)
ساعة مع الشيخ بهاء الدين زكريا الملتانى

إذا كان تاريخ الهند الإسلامى يزخر بذكر أولئك العارفين ورجال الله الذين جمعوا بين علم الظاهر وعلم الباطن، وبين معرفة الخلق ومعرفة الخالق، وإذا كان التاريخ يحمل مادة غنية خصبة من القصص الروحانية والصلة الأصلية بالله تعالى التى تغذى القلب، وتقوى العاطفة، وترقق الحس وترهف الشعور، فلا شك أن هناك أمثلة كثيرة مما يحمل فى جنبه درسًا كبيرًا وعبرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، وهى أمثلة لا ينفد مددها، ولا ينضب معينها.

إن الشيخ بهاء الدين زكريا الملتانى لم يكن وليًا عارفًا فحسب، ولم يكن ممن جمعوا بين العلم والإيمان، وبين المعرفة والحنان فقط، بل إنه كان فى جنب ذلك من أغنى الناس فى زمانه، ومن أثرياء أهل عصره، فقد رزقه الله مع العلوم والإيمان أموالا عظيمة، ونقودًا طائلة لينفقها فى سبيل الله ويمثل فى شخصه نموذج المؤمنين الصادقين الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿الذين يُنفِقُونَ أَمْوَالَهم فِى سَبِيلِ اللهِ ثُم لا يُتبِعُونَ مَا أَنْفَقوا مَنًّا وَلا أَذى لَهُم أَجْرُهُم عِندَ رَبِّهِم، وَلا خَوفٌ عَلَيهِم وَلا هُم يَحْزَنُون﴾.

ولد الشيخ بهاء الدين زكريا بقلعة كوت من قرى ملتان، سنة ست وستين وقيل ثمان وسبعين وخمسمائة، وأمه بنت الشيخ الكبير حسام الدين الترمذى، أحد كبار العلماء والشيوخ فى زمنه، ولما بلغ الشيخ بهاء الدين الثانية عشرة من عمره توفى والده فسافر إلى بخارى حيث اشتغل باكتساب العلم من كبار الأساتذة والشيوخ، ثم سافر إلى الحجاز فحج البيت وزار مسجد الرسول ﷺ فى المدينة المنورة وأقام بها خمس سنين يأخذ فيها الحديث الشريف عن الشيخ كمال الدين محمد اليمانى حتى علا كعبه، وانتشر صيته فى فن الحديث، واشتهر فى الناس بلقب المحدث، وجعله الله إمامًا كبيراً، وعالمًا خبيراً، ومحدثًا شهيراً، انتفع به الخلق، واهتدى به الناس إلى طريق الحق والعلم.

وعندما تم له فى الحجاز ما أراد من الحج والزيارة وأخذ العلم، توجه إلى القدس فزار المسجد الأقصى ومشاهد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ومن القدس عاد إلى بغداد باحثًا عن من يبايعه ويتخذه مرشداً يكتسب منه علم الباطن ويقتبس منه قبسة من أنوار العلوم الروحانية، حتى حقق الله أمنيته هذه على يد الشيخ الكبير شهاب الدين عمر بن السهروردى صاحب العوارف، فنهل من مناهل علومه وعل، واستطاع فى مدة قليلة أن يبلغ إلى درجة الإرشاد والسلوك العليا، وأن يتصدى لإفادة الخلق الغافلين وإرشاد الناس التائهين.

ورجع إلى ملتان، إلى وطنه الذى بدأ منه رحلته العلمية بعدما أتم دراسته للعلوم الظاهرة والباطنة، وجمع من الفضائل والعلوم مالم يدركه أحد فى زمنه، رجع الشيخ بهاء الدين إلى ملتان ناجحًا مسرورًا، مغتبطًا على ما آتاه الله من ثروة العلم والعمل، ورزقه الله من نعمة فهم الدين ومقتضياته واشتغل بإرشاد الناس وهداية الخلق إلى سبيل كلها خير وصلاح، كأنه ينادى بلسان الحال "قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين".

يحكى التاريخ أن الشيخ بهاء الدين زكريا حينما بدأ عمله وجهاده من الإرشاد والهداية التف حوله جمع عظيم من خلق الله، وتهافت عليه الناس من كل قرية ومدينة تهافت الظمآن على الماء، وكان ذلك من أجل ما رزقه الله من القبول مالم يرزقه أحدًا من المشايخ والعلماء فى عصره،

كما منحه الله تعالى كنوزًا من الأموال والعقار يستعين بها فى خدمة العلم والدين وينفقها على المستحقين من طلبة العلم والفقراء والمساكين، وبذلك جمع بين فضيلتين، فضيلة التعليم والتوجيه، وفضيلة إنفاق المال فيما تدعو إليه الحاجة الدينية، وتقتضى به الظروف والأحوال، وهى لا شك مأثرة عظيمة خالدة على صفحات الدهر يقل نظيرها فى التاريخ.

إن للشيخ زكريا بن محمد شأناً أى شأن فى السلوك والمعرفة

فقد قام بالبيعة والإرشاد قيامًا لم يوفق إليه أحد من معاصريه وهو مع ذلك كان محدثًا كبيرًا يعلم أتباعه ومريديه علم الحديث والفقه ويدرسهم بنظام وترتيب، فكان يتخرج من مدرسته طلاب يجمعون بين علوم الكتب وعلوم السلوك والمعرفة، وبين العلم والعمل، وكانوا خير نموذج لمن يطلب العلم كي يعمل به، ويطبقه على حياته.

يقول الشيخ محمد نور الحسن في كتابه "سلسلة الذهب" "إنه كان رئيس الأولياء ببلاد الهند، وكان عالمًا بالعلوم الظاهرة صاحب أحوال ومقامات من مكاشفات ومشاهدات مرشدًا يتشعب منه كثير من طرق الأولياء، وله في الإرشاد وهداية الناس من الكفر إلى الإيمان، ومن المعصية إلى الطاعة ومن النفسانية إلى الروحانية شأن كبير".

ومن وصاياه

إن الواجب على العبد أن يعبد الله بالصدق والإخلاص وذلك بنفي الأغيار، ومحو الأشخاص في العبادات والأذكار، ولا سبيل إليه إلا بتحسين الأحوال، ومحاسبة النفس في الأقوال والأفعال فلا يقول ولا يفعل إلا عند الحاجة، ويقدم لكل قول وفعل الالتجاء إلى الله، والاستعانة به ليرزقه الله عز وجل خير العمل.

ومن وصاياه لبعض أصحابه: عليكم بدوام الذكر، وبالذكر يصل الطالب إلى المحبة والمحبة نار تحرق كل شىء دنس، فإذا تحققت المحبة كان الذاكر ذاكرًا مع مشاهدة المذكور وهذا هو الذكر الكثير الموعود به الفلاح فى قوله تعالى: ﴿اذْكُروا اللهَ كَثِيرًا لعَلَّكُم تُفلِحُون﴾.

ومنها: "سلامة الجسد فى قلة الطعام، وسلامة الروح فى ترك الأنام، وسلامة الدين فى الصلاة على محمد ﷺ"[1].

وحياته كلها مرآة صافية تتجلى فيها جميع مخايله الإنسانية الرفيعة التى تغذى العقل والعاطفة بغذاء روحى دسم يتمكن به الإنسان من إسعاد الحياة، وترقية العيش وتطهير النفس وتزكية القلب، ويستطيع أن يرى حياته فى هذه المرآة فيزينها بإزالة كل دنس، واستعمال كل زينة، فإن الإيمان القوى يزكى الحياة ويجليها حتى يجعلها مرآة صافية لكل مؤمن كما جاء فى الحديث الشريف "المؤمن مرآة للمؤمن".

ونستطيع أن نقوم أمام هذه المرآة الصافية فيطلع على ما ينقصنا فى الحياة وما أصابنا من المكروه والأذى فنتطهر من جميع ذلك ونصلح كل عوج وفساد.

توفى الشيخ بهاء الدين زكريا بعدما عاش مائة سنة كوامل يصلح ويقيم ويوجه ويرشد، طوال عمره، واستأثرت به رحمة الله

---

[1] نزهة الخواطر ج ١ ص ١٥٨.

سنة ٦٦٦هـ ودفن فى حصار ملتان القديم رحمه الله ورضى عنه[١].

* * *

[١] استفدنا فى هذا المقال من كتاب نزهة الخواطر ج ١ للعلامة عبد الحى الحسنى.

(٦)
ساعة مع الشيخ قطب الدين الكعكى

فى عهد السلطان شمس الدين الالتمش أشرقت دهلى عاصمة بلاد الهند بقدوم الشيخ قطب الدين الكعكى، ذلك الرجل الكبير الذى كان بمثابة منارة نور يهتدى بها السالكون فى ظلام الليل الحالك، ويستنيرون بها الطريق إلى منازلهم، إنه لم يكن منارة نور لعامة الناس فحسب، بل وقد عم ضياؤها حتى وصل إلى البلاط والملك والسلطان واستضاء الناس على اختلاف طبقاتهم ومنازلهم، فقد كان الكل فى حاجة إلى النور بعدما عاش فى الظلام دهرا، وكان الجميع ينتظر انبثاق الفجر بعدما طال عليه الليل بظلامه.

وبينما كان الشيخ معين الدين السجزى يبلغ رسالة السماء إلى أهل الأرض فى أجمير، وينور القلوب المظلمة بنور الإيمان والمعرفة والحب كان الشيخ قطب الدين الكعكى يشحن القلوب إيمانا ومعرفة فى دهلى، ويرشد التائهين إلى سبيل الأمن والعزة، فكم من قلوب أنارها بنور الحق وكم من عقول صقلها بمعرفة الله عز وجل، وكم من أذهان مغلقة فتحها للإيمان واليقين.

إنه كان من كبار أولياء الله أجازه الشيخ معين الدين السجزى وهو لم يتجاوز سن العشرين، فانقطع إلى الله سبحانه بقلبه وقالبه

واشتغل بدعوة الخلق إلى الله وتربية الناس على معانٍ كريمة من الإيمان واليقين والتقوى حتى أنشأ جيلا مسلمًا، داعيًا إلى كلمة الإسلام، عاكفًا على عبادة الله، مشتغلا فى نشر رسالة الإسلام، وتنفيذ شريعته فى المجتمع الإسلامى.

ولد الشيخ قطب الدين الكعكى فى "أوش" مدينة بنواحى فرغانة فى حدود ما وراء النهر وتوفى والده وهو ابن سنة ونصف فلم يحظ بعطف والده كمال الدين الكعكى، ولما بلغ الخامسة من عمره دخل الكتاب وتتلمذ على يد الشيخ أبى حفص المعلم الأوشى ثم ارتحل إلى بغداد وأدرك الشيخ الكبير معين الدين السجزى فى مسجد الفقيه أبى الليث السمرقندى فلازمه مدة من الزمان وفاز منه بالخلافة.

وقدر الله له أن يهاجر من بلاده إلى الهند ويتخذها موطنًا فسافر إليها مغادراً كل شىء من الأهل والمال، وذلك فى عصر أصيب فيه العالم الإسلامى من أقصاه إلى أقصاه بالفتنة التتارية التى تقشعر من ذكرها الجلود، والتى لا تزال تعد أبشع جريمة ارتكبها الهمج الرعاع وتذكر فى التاريخ بأقبح ذكر، ولعل ذلك هو الباعث على مغادرة بلاده إلى بلاد الهند التى كان يحكمها فتى شهم من الفتيان المسلمين وكانت له مواقف محمودة فى خدمة العلماء والمشايخ لأجل بث الدين الحنيف فى الهند الوثنية أعنى به السلطان شمس الدين الالتمش.

ولكن العامل الأقوى فى هجرته إنما هو وجود شيخه الكبير معين الدين فى الهند فهو الحافز الأصلى على ما آثره الشيخ قطب الدين من هجرة الوطن وترك الأهل والأصحاب فلما وصل إلى دهلى أقبل عليه الناس بعدما رأوا فيه عارفًا كبيرًا وعالمًا زاهدًا والتفوا حوله وتلقوه بقبول حسن.

واجتمع عنده حشد كبير من مريديه ومحبيه، ولم يزل يتزايد إقبال المسلمين عليه حتى وجد ذلك فى نفس شيخ الإسلام نجم الدين الذى كان من كبار أولياء الله والعارفين فى دهلى آنذاك، وشكا ذلك إلى الشيخ معين الدين حينما جاء إلى دهلى لزيارة تلميذه ومريده الشيخ قطب الدين، فطلب منه أن يغادر دهلى إلى أجمير حيث يشتغل فى إفادة الخلق وإرشاد الناس وقال له: إنى سأكون لك خادمًا مطيعًا واقفًا لخدمتك فى كل حين.

لقد قال ذلك الشيخ معين الدين رئيس العلماء والشيوخ وإمام العارفين فى عصره، لتلميذه ومريده الشيخ قطب الدين إنه لم يسمح بما أبداه من عواطف الخدمة والوقوف عنده كتلميذ خاشع، ولم يحتشم بهذا التواضع أمامه، وكيف يحتشم وقد بلغ ذروة عليا من الإحسان والمعرفة، وكيف يستحى وهو يعتقد أن التلميذ فاقه بدرجات وسبقه فى مجال المعرفة والولاية والسلوك، وكيف لا يعترف بعجزه وضعفه وهو عبد خاشع يزن الأشياء فى ميزان قبولية الله ورضاه إنه ينظر إلى الشيخ قطب الدين ذلك

التلميذ الذى علمه مبادئ السلوك والمعرفة وأجازه فى مسجد الفقيه أبى الليث السمرقندى فى بغداد بمنظار علمه ومعرفته ويجده متبوئًا منصبًا أعلى من منصبه وشاغلا أكبر فراغ فى سبيل خدمة الدين وتبليغ رسالة الإسلام، وهو مع ذلك لا يحب أن يكتئب من أجله شيخ الإسلام نجم الدين، ولا يرضى بحدوث أدنى اختلاف فى جماعة العارفين وصفوفهم لأن ذلك يؤدى إلى فساد المجتمع واضطراب الحوال، توسم الشيخ معين الدين كل ذلك، ولم يرد أن يطلع الشيخ قطب الدين على شكوى شيخ الإسلام فيجد الحزن والكآبة إلى قلبه سبيلا.

ولكنكم هل تعرفون كيف رد الشيخ قطب الدين على شيخه معين الدين عندما طلب إليه مغادرة دهلى إلى أجمير حيث مقره وعرض عليه خدمته، قال الشيخ قطب الدين:

"يا سيدى! إننى لست أهلا للوقوف أمامك فضلا عن الجلوس عندك" فأمره الشيخ معين الدين بالسفر إلى أجمير وأطاعه وسار معه وما أن خرجا من المدينة إذ قامت فى دهلى قيامة وارتفع الضجيج والعويل على مفارقة الشيخ قطب الدين مدينة دهلى وتبعه الناس ومعهم السلطان شمس الدين ليسترجعوه إلى دهلى وكانت أصوات البكاء والصراخ ترتفع، ولما رأى الشيخ معين الدين أن الله تعالى قد وضع للشيخ قطب الدين قبولا عامًا فى قلوب الناس، وهم لا يستطيعون أن يحتملوا فراقه، علم أن ذلك

أمر من عند الله، ورد الشيخ قطب الدين إلى دهلى قائلا:

"اذهب يا شيخ بختيار إلى حيث جئت وأقم هناك، فإن خلق الله مضطرب لفراقك، ولا يجوز لى أن أحزن القلوب وأتركها على مضض فارجع فقد تركت هذه المدينة (دهلى) تحت خدمتك ورعايتك" وشكر الناس والسلطان للشيخ معين الدين على هذه المنة، ورجع الشيخ معين الدين إلى أجمير، ورجع الشيخ قطب الدين إلى دهلى، حيث اشتغل بإفادة الناس وإرشاد خلق الله وخدمة الدين الحنيف وإعلاء كلمة الحق مستغنيًا عن السلطان مقتنعا على ما رزقه الله من القبول الحسن مع الفقر وشدة الحال فلم يعد فقير ولا غنى أمير ولا رعية إلا وقد خضعوا أمامه، وتعلموا منه دين الله.

يقول الشيخ عبد الحق المحدث صاحب "أخبار الأخيار" "أنه شغل الدنيا كلها باهتمام دعوته، ودعا له العلماء والأمراء والأئمة جميعا" أما سلطان شمس الدين الالتمش فقد كان من أكبر الملوك فى عصره ودانت له بلاد الهند كلها ولكنه كان يستأذن على الشيخ قطب الدين ويدخل زاويته الفقيرة ويسلم عليه تسليم العبد المطواع لسيده، ويكبس رجليه ويخدمه ويبكى حتى يدعو له الشيخ ويأمره بالانصراف.

إن عمل الدعوة والتجديد فى حقل الدعوة الإسلامية كان أصعب شىء فى عصر اجتمع فيه رؤوس علماء العالم الإسلامى

وأساتذته وشيوخه وأولياؤه فى مركز الهند (دهلى) وكان أصعب من ذلك عمل التربية والتعليم، وهداية الحكومة الإسلامية الوليدة دون حرص على منصب مهما كان عاليا ولا نظر إلى الجاه والمال مهما كان كبيرا، ودون إثارة سخط أو خلاف بين صفوف العلماء والمشايخ وتوجيههم إلى نقطة الاتحاد وجمعهم تحت راية توحيد الصفوف والعمل للإسلام بإخلاص النية لله.

ولكن الأسلوب الذى اتخذه الشيخ معين الدين أرضى الجميع وجعل القلوب مقبلة على خدمة الإسلام، وخلفه فى ذلك الشيخ قطب الدين وسار بنفس ذلك الأسلوب حتى استطاع أن ينشئ طائفة من الدعاة المخلصين فى الهند، ويوطد الطريقة الجشتية التى أسسها الشيخ معين الدين لأغراض دينية بحتة وأهداف إسلامية خالصة، ونجح فى مهمة الدعوة والإرشاد إلى حد كبير.

ولو أمهله الزمان ولم يفاجئه الأجل بعد وفاة شيخه معين الدين بمدة قريبة لكان ما تركه من المعالم والآثار وما خلفه من دعاة مرشدين وجماعة ثائرين على كل منكر أضعاف ما كان، ولكنه توفى وهو ابن الخمسين سنة أو ما يزيد قليلا وخلفه فى عمله ودعوته وجهاده الشيخ مسعود فريد الدين الأجودهنى، الذى يعتبر بحق متمم الطريقة الجشتية فى الهند[1].

---

[1] استفدنا فى هذا المقال من كتاب "تاريخ دعوة وعزيمت" للأستاذ السيد أبى الحسن على الندوى.

(٧)
ساعة مع الشيخ أحمد السرهندى

اختاره الله من بين خلقه كى يكون مجددا يخلف فى تاريخ الهند الإسلامى قصة طويلة لجهاده ومجاهداته، وسلسلة بعيدة من مآثره ومفاخره، فبعثه الله وليا بلغ من الولاية منزلة لا يرام فوقها، وعارفا وصل من المعرفة درجة لا يتصور وراءها ولولا هذا الشأن الذى ناله، وهذه العزة التى أدركها لم يفتخر به التاريخ الإسلامى ولم يجر ذكره على ألسنة الناس رجالا ونساء، شبابا وكهولا.

وكم سمعنا وقرأنا اسم مجدد الألف الثانى، الذى حارب أكبر قوة على وجه الأرض وقام ضد أعظم امبراطور[١] فى عصره، والذى يعد رئيس العلماء والعارفين، وسيد الأولياء والربانيين فى الألف الثانى للهجرة، إنه كان نموذجًا كاملا لعالم قوى الإيمان عظيم الجنان، ومثالا نادرًا لولى أحب الله ورسوله بجميع قلبه، فأتى بالمعجزات وصنع من العجائب ما يدهش العقول، ويحير الألباب.

---

[١] الامبراطور "أكبر" بن همايون الذى كان من أكبر الملوك فى عصره حكم الهند فى فجر القرن الحادى عشر.

فى بداية القرن الحادى عشر الهجرى كان المجتمع الإسلامى فى الهند خاصة والعالم الإسلامى عامة قد أصيب بخور فى عقيدته وضعف فى إيمانه، ونكسة فى دينه لم يكن هناك من يأخذ بيده، وينبهه من رقدته، ولم يكن هناك من يذكره مجده التليد، ومكانته السالفة، فقد انتهت القوى الباطلة بجميع أنواعها فى المجتمع الإسلامى وقامت على قدم وساق لتعمل عملها فى هدم صرح الإسلام، وبناء صرح الإلحاد والكفر على أنقاض التراث الإسلامى، وتمتعت هذه القوى الباطلة بحماية الدولة ورجال السلطة فتضاعفت قوتها، وتقوت كلمتها، وخيف على الدين من الضياع وعلى المسلمين من الإلحاد السافر.

وتفاقم خطر الكفر والارتداد فى المسلمين بوجه عام، الذى أقلق الشيخ أحمد وأقض مضجعه، وبدأ يفكر فى دفع هذا الخطر العظيم واقتلاع جذوره لتكون كلمة الله هى العليا وتعود إلى المجتمع الإسلامى الهندى ثروة الإيمان والمعرفة ويسود عليه جو من العز والطمأنينة، إنه أراد أن يحارب هذه القوى الباطلة بسلاح الإيمان وخاض هذه المعركة: معركة الكفر والإسلام، ومعركة العقيدة والإلحاد، وواجهها بجنة من الصبر والإيمان القوى، حتى زحزح كل طاقة قامت أمامه وأخفت كل صوت ارتفع ضده، ووطئ كل فتنة بأقدامه، وخاف منه الملوك والأمراء على ملوكيتهم ورئاستهم فعذبوه بأنواع من التعذيب، ونكلوه بضروب من الأذى،

ولكنه احتمل كل عقاب وعذاب بغاية من الصبر والجلاده، وثبت على مبدئه كالجبل لا يتزحزح عن مكانه ولا ينحرف عن دعوته، ولا يحيد عن قوله.

كان الشيخ أحمد حاجه المجتمع الإسلامى فى حين أحوج ما كان إليه، فصادف فيه من يأخذ بيده وينقذه من مهازل الإمبراطورية العفنة ومخاذل الأمراء المتسلطين الذين حاولوا أن يلعبوا بالدين، ويستهزئوا بالعقيدة، حتى تذهب عظمة الإسلام من قلوبهم ويبقى الشعب المسلم فى الهند أداة تقوم بدعاية البلاط الكاذبة، وتعبير السلطة بالإسلام اسمًا لا حقيقة، حتى تجرءوا على أن يشتروا الشيخ أحمد بدراهم معدودة ليستغلوه فى تضليل المسلمين وتشويه العقيدة الإسلامية وذلك لما كانوا يرون من إقبال المسلمين عليه، وقبوله عند أكثر طبقاتهم آنذاك.

فى هذا العصر المظلم الذى بلغ من الجهل والسفاهة والظلم والجور والطغيان درجة لا تتصور فوقها، وفى مثل هذا المحيط الأسود الذى كان يحارب العقيدة والدين ويخترع دينًا جديداً، وعقيدة جديدة، وكلمة جديدة إزاء الدين الإسلامى، كان من الصعب جداً أن يقوم فيه رجل ضعيف لا يتمتع بالرجال والسلاح والجنود بمقاومة الملك والجنود ويعلن فى الناس بأنه لن يرضى بما ارتضاه الناس خوفًا من البلاط وفرقًا من الجنود والسلاح أنه لن يرضى أبداً بأن يرى الإسلام يخذل وكلمة الله تفقد عظمتها

ومكانتها، ويرى أن ملكًا ملحدًا يرد الناس عن دينهم، ويصرفهم عن عقيدتهم ويرى أن علماء عصره يساعدون الملك الجبار فى تشويه وجه الدين ويوافقونه على ما يقول ويأمر.

وكاد الدين الإسلامى فى الهند وما والاها من البلاد يفقد قوته ومكانته للأبد ويحتل مكانه دين جديد ليس من الإسلام فى شىء، وهو دين أكبر وكلمته التى فرضها على رعيته وأعلن فيهم الله أكبر معناها أن الإمبراطور "أكبر" هو الله ويعترف بذلك جميع من بحضرته فيسجدون له وينكسون أمامه ويطلبون منه ما يطلب من الله، وبدت تقاليد وعادات وعقائد فاسدة تتحكم فى الناس وتحل فيهم محل عقيدة دينية.

ولكن الأسلوب الذى اختاره الشيخ السرهندى لدعوته إنما هو أسلوب جذاب عميق التأثير، قوى الفعل وهو طريق الرسائل التى كان يبعثها إلى كبار العلماء، والوزراء ورجال الدولة والجيش، والتى كانت ولا تزال كنوزًا من المعارف والحكم، فقد تحمل فى جنبها معانى عظيمة رائعة للحكمة والمعرفة تنير السبيل، وتزيح الباطل وتهيئ فى النفس مجالا لقبول الحق والعبرة به.

اتصل الشيخ بالبلاط وأركان الدولة عن طريق الرسائل فنال منهم إجلالا وإكرامًا لقوله ولدعوته، ووجدهم يحلونه محلا رفيعًا ومكانة عالية، فازداد نشاطه فى المراسلة مع رجال الدولة

والجيش، حتى بايعه منهم عدد كثير، وأحبوه حبًا عظيمًا من صميم قلوبهم لما رأوا فيه من مقت وكراهية للدنيا وحطامها، وإقبال على الله والآخرة وانقطاع إلى عمل جدى مثمر لا يعرفه علماء ذلك العصر.

فكانت رسائل الشيخ السرهندى من أبلغ الطرق للدعوة والإرشاد وأعظمها تأثيراً فى القلوب لما كانت تحتوى على معانى جميلة ومفاهيم عالية من الإيمان واليقين تصدر من قلب مخلص وتأخذ بمجامع القلوب ولا تلبث دون أن توثر فيها أعمق التأثير، ولا تزال هذه الرسائل مصدراً للدعاة والعاملين المخلصين، ورائداً للباحثين عن الحق والسالكين فى جادة السلوك والمعرفة وزينة للمكتبة الإسلامية الزاخرة، وهى فى ثلاثة مجلدات كبار باللغة الفارسية البليغة.

يقول فى رسالة: "واحزناه، واحسرتاه، وامصيبتاه، إن أتباع محمد ﷺ ـ وهو محبوب رب العالمين ـ غرباء مهانون فى بلادهم، وأعداؤه مكرمون، إن الباطل بارز منصور وإن الحق مخذول مستور".

ويقول فى رسالة أخرى: "لقد أتى على الإسلام والمسلمين حين من الدهر فى هذه الديار ـ يعنى به عهد الملك أكبر ـ إذا عمل مسلم بحكم شرعى يسجن ويعاقب ويهان ويعذب والديانات كلها حرة ممتعة بكل حق لقد شمت بالمسلمين الأعداء وسخروا

منهم وأصبحوا هدفا لكل تجريح وإهانة[١]".

وقد كان شديد الحرص على اتباع السنة عظيم الكراهية للبدعة كبير الاجتناب من كل مالا يوافق السنة المطهرة فكان من دأبه أن يهتم بالعمل بالسنة فى كل حين وآن حتى فى الأكل والشرب والقعود والقيام والمشى والمنام، لم ير منه قول أو عمل يخالف السنة طوال عمره، ويروى أنه طلب مرة من أحد مريديه حبات من قرنفل فلما جاءه بست حبات كره ذلك منه وظهر أثره فى وجهه وقال فى لهجة الكراهية مع الأسف إن صاحبنا لم يعرف حتى الآن أن مراعاة عدد الوتر سنة، إن الله وتر ويحب الوتر، وقال إننى عندما أتوضأ أهتم بغسل الوجه الأيمن أولا لأن التيامن سنة.

ولم تمض لمحة من لمحات حياته إلا فى العبادة والدعاء وإرشاد الخلق والدعوة إلى الله والمثابرة على السنن والنوافل والتلاوة والذكر وما كان ينام فى الليل إلا قليلا كان يستيقظ كل ليلة منذ انتصافها، ويشتغل فى النوافل والدعاء والتوبة والإنابة والذكر إلى الصبح، وكان يوزع الطعام على الفقراء والمساكين عند فراغه من صلاة الضحى ويحضر مائدته من العلماء والصلحاء والحفاظ كل يوم من يبلغ عددهم نحو مائة رجل وكلما جاء مبلغ من المال وزع منه جزءا على المستحقين كما

---

[١] الدعوة الإسلامية وتطورتها للأستاذ السيد أبى الحسن على الندوى.

كان يهتم بأداء حقوق العباد فيعود المرضى ويصلى على الموتى ويربى الأولاد والأهل ومريديه تربية حسنة ويؤدى حقوقهم وواجباتهم بوجه أحسن ويقوم بالتدريس والفتيا وما يستفيد منه خلق كثير.

انتشرت عقائد الشيعة فى عصره لما كان الإمبراطور جهانكير قد فتح لهم بابه وألان لهم جانبه، وكانوا ذوى حظوظ لديه فيلتفون حوله ويعينونه فى نشر العقائد الفاسدة، فرد الشيخ السرهندى على عقائدهم الباطلة وأزاح الستار عن مكرهم وخداعهم، وثار عليهم بما كانوا يفعلون من محو تعاليم الدين ونشر الإلحاد والفسق حتى أثار ذلك غضب الشيعة فقاموا بدسيسة لدى الملك وحرضوه على أن يزج الشيخ فى السجن، ففعل وأودعه فى السجن ومكث فيه سنتين، يدعو السجناء إلى الإسلام، حتى اسلم على يديه فى السجن مئات من الوثنيين.

يقول الدكتور أرنلد: فى كتابه PREACHINJ OF ISLAM "لقد كان فى عهد الإمبراطور جهانكير الذى حكم الهند من ١٦٠٥ م إلى ١٦٢٨م عالم دينى من أهل السنة يسمى بالشيخ أحمد المجدد وكان معروفا برد العقائد الشيعية بصفة خاصة، وبينما كان الشيعة مسيطرين على البلاط، أرادوا أن يسجن الشيخ أحمد وتحققت رغبتهم هذه إذ ألقاه جهانكير فى السجن ومكث فيه سنتين يبلغ إلى السجناء دعوة الإسلام حتى

أسلم على يديه مئات من الوثنيين".

كما جاء فى دائرة المعارف ENCYCOPAEDIA OF RELGION AND ETHICS فى سياق البحث عن تبليغ دعوة الإسلام "فى القرن السابع عشر المسيحى" كان فى الهند عالم دينى اسمه الشيخ أحمد المجدد سجن ظلما وعدوانا، فقام فى السجن بتبليغ رسالة الإسلام إلى السجناء الوثنيين حتى أسلم منهم عدد كبير يربو على مئات".

ولم تراوده فكرة كسب المعاش أبدا بينما عاش فى عهد أعظم ملك فى الدنيا ذلك الإمبراطور العظيم الذى حاول استرضاءه بأنواع من الحيل ولكنه أبى كل ذلك بشدة وتناوله بنقد لاذع على ما كان يبيحه من أمور لا يقرها الإسلام.

عاش الشيخ أحمد السرهندى حياة نظيفة لا يشوبها شىء من الدنيا، فقد رغب عنها وعن كل ما فيها رغبة كاملة وأقبل على الله والآخرة إقبالا من قلبه وقالبه وأقام على الناس حجة على أن غاية خلق الإنسان هى أن يعيش فى الدنيا ليمهد السبيل للآخرة ويقدم للغد من يومه زادا يساعده فى النجاح الأبدى الذى لا نجاح فوقه.

إن الشيخ أحمد مضى إلى الآخرة ولكنه خلف سلسة من أعمال وجهاد استفادت منها الأمة الإسلامية، ولا تزال تستفيد منها واهتدى بها وبأصحابها من بعده خلق كثير لا يحصيهم إلا

الله، وطريقته في التصوف التي كانت تسمى بالطريقة الجشتية قوى التأثير جدا، نالت من القبول مالم تنله أي طريقة أخرى، فقد نمت وانتشرت في العالم الإسلامي كله من نواحي الترك إلى أقصى ثغر بالمشرق بل وإلى المغرب الأقصى مثل "فاس" وغيرها كما ذكره محمد بن عبد الرحمن الفاسي في كتابه "المنح البادية" وكان الشيخ خالد الكردي من خلفائه الذي انتشرت به هذه الطريقة في العالم الإسلامي مثل العراق والشام.

وقد رزقه الله تعالى أربعة أولاد كلهم من أولياء الله الكبار فقد ظهرت على أيديهم من كرامات وإرشادات تندهش منها العقول، واهتدى بهم خلق كثير من بعده، بخاصة بلغ الشيخ محمد معصوم ابنه الثالث درجة عليا من الكمال والمعرفة والربانية حتى يقال إن عدد مريديه يربو على تسعمائة ألف من الناس.

وله مؤلفات كثيرة تزخر بالعلوم والمعارف والحقائق والرموز، ولا سيما رسائله الرقيقة التي جمعت في ثلاثة مجلدات تعد من أبلغ الرسائل وأعمقها تأثيرا في القلوب وهي تصور شخصيته القوية المؤمنة التي يفتخر بها التاريخ الإسلامي في العالم أجمع.

* * *

(٨)
ساعة مع الشيخ محمد معصوم السرهندى
(١٠٠٧ - ١٠٧٩م)

يسعدنى فى هذه اللحظة أن أتحدث عن الشيخ محمد معصوم السرهندى بعدما تحدثت عن والده الشيخ أحمد السرهندى ذلك الشيخ الكبير الذى ربى ولده فى مهد من الإيمان والعمل وفى جو من الصلاح والتقوى فترعرع رجلا كاملا قويت صلته بالله تعالى ونشأ عارفا كبيرا اهتدى به خلق كثير وبايعه الناس على الإيمان والإسلام.

إنه نجل الشيخ الكبير مجدد الألف الثانى الذى دعاه الناس بـ "العروة الوثقى" وكان عروة وثقى لا شك فى ذلك فقد خلف والده فى الإيمان والتقوى، وفى إصلاح المجتمع وتزكية القلوب وفى المعرفة والربانية واستطاع بذلك أن يبلغ رسالته إلى آلاف من الناس وينور الطريق لعدد ضخم من التائهين وقام بنشر تعاليم النبى الكريم عليه الصلاة والسلام بعدما كان الناس قد نسوها وأعرضوا عنها، ونهض بإحياء السنن التى كان الزمن قد طواها، واتصل فى سبيل ذلك بكل مركز من المراكز، واتصل بالملوك

والأمراء والشيوخ والعلماء، وقابل كل شخصية فى عصره، سواء كانت شخصية السلطان والإمبراطور، أو شخصية العلماء والمشايخ أو كانوا عامة الناس ممن لا شأن له به واحدث فيهم تأثيرًا عميقًا لدعوته وإخلاصه وجهاده ونصحه.

ومما لا شك فيه أنه كان وارثًا لثروة الإيمان التى خلفها الشيخ أحمد السرهندى وأمين سره الذى أودعه فى نفسه، فقد شرح الله صدره لبيان العلوم والمعارف الإلهية التى تصل الإنسان بالخالق، وتقربه إلى الله سبحانه وتعالى، إنه اقتفى آثار الشيخ المجدد فى الدعوة والجهاد فسد كل ثلمة حدثت بعده وأصلح كل فساد نشأ فى المجتمع، ولم يزل قائمًا بإنارة الطريق وإضاءة القلوب وإعلاء كلمة الحق ورفع شأن الدين نحو نصف قرن، ولم يدع ناحية من نواحى الحياة والعلوم الإلهية إلا ضرب فيها بسهم أوفر ونصيب أكبر وأزاح الستار عن وجه كل بدعة دخلت المجتمع والحياة وعن كل سيئة أحاطت بخاصة الناس وعامتهم.

ولد الشيخ محمد معصوم السرهندى فى ١١ من شوال عام ١٠٠٧هـ يوم الاثنين، وكانت ولادته فاتحة عهد جديد للشيخ أحمد السرهندى إذ أقبل على تحصيل العلوم التى رفعته إلى منزلة عليا من الإحسان والسلوك والمعرفة، يقول فى إحدى المناسبات: "إن ولادة محمد معصوم حملت إلى سعادة وبركة، فقد قدر الله لى بعد ذلك بشهور أن زرت الشيخ الكبير الخواجة

باقي بالله وبايعت على يده وهنا وفقني الله لتحصيل هذه العلوم الروحية والتقرب إليه".

ومنذ بداية عمره كان يحضر مجالس والده الشيخ أحمد ويستفيد من دروسه ومواعظه في الإرشاد والإحسان، وكان يتقنها ثم يعمل بها ويصوغ حياته في قالبها، يروى الخواجة محمد هاشم في كتابه "زبدة المقامات" عن الشيخ أحمد السرهندي إذ سمعه يقول: "إن محمد معصوم في اقتباسه لنسبتنا وطريقنا واستفادته منها يماثل صدر الشريعة صاحب "شرح الوقاية" في حفظه وإتقانه ما كان يؤلفه جده بلا تأخير "وكان الشيخ المجدد يقول لولده الشيخ محمد معصوم: "يا بني إنك فينا مرجو، ونحن في حاجة إلى أن نستخدمك في أعمال جليلة وننتظر فراغك من دراسة العلوم لهذه الأعمال".

وحقق الله أمنية الوالد فبرع الشيخ محمد معصوم في العلوم العقلية والنقلية وهو لم يتجاوز سن السادسة عشرة، وحفظ القرآن بعده في ظرف ثلاثة أشهر فقط وقيض الله له اكتساب المعارف الربانية في إشراف والده العظيم، حتى تمكن من اجتياز مراحل السلوك والنجاح فيه في مدة قليلة، وتشرف بالخلافة والإجازة لإرشاد الناس وإصلاح الأحوال.

وعندما توفي الشيخ المجدد سنة ١٠٣٤ آل إليه منصب الإرشاد والإصلاح وخلفه في جميع أموره، وأفاد الخلق بعلومه

وأعماله وآرائه السديدة ونظرته الواسعة وقلبه الكبير واستفاد منه الناس على اختلاف طبقاتهم ومنازلهم، وتباعد ديارهم وأوطانهم، ولم يبق من الملوك والأمراء والشيوخ والعلماء، ورجال الحكومة والمناصب العالية، ولم يفت من عامة الناس وخاصتهم إلا وقد نهل من منهله الروحي العذب واغترف من بحر معارفه وعلومه ما وصل به إلى درجة عليا من العز والكرامة في الدين والدنيا.

يشهد التاريخ أن ثلاثة ملوك من الدولة المغولية ذات السلطة والقيادة في عهدها حضروا متتابعين لدى الشيخ محمد معصوم يطلبون البيعة على يده، وهم جهانكير شاه جهان، وأورنك زيب، فبايعهم على الإسلام والإيمان، وإخلاص العمل والعبادة لله وبالأخص أورنك زيب فقد كان تلميذ الشيخ محمد معصوم في القصر، درسه عندما كان صبيا فكان لدروسه تأثير وأي تأثير في نفس أورنك زيب، ولعل ذلك هو السبب الوحيد في نشأته صوفيا زاهدا في حطام الدنيا راغبا عن الأموال والمناصب حتى إذا تبوأ على منصب السلطان أقبل على إصلاح الأمور وتسيير دفة الحكومة وفق الدستور الإلهي والتشريع الإسلامي، وقد نجح في ذلك فعلا إذ أدخل في نظام الحكومة تغييرات وتعديلات تمكن بها من إنجاز جلائل الأعمال والخدمات التي لم تتيسر لأي ملك من المغول، بل ولم يستطع أي سلطان ولا امبراطور ولا ملك

من الملوك فى ذلك العصر وبعده أن يقوم بمثلها أو ما يقارب منها.

لقد كتب الشيخ مراد بن عبد الله القزانى فى كتابه "ذيل الرشحات" وهو يتحدث عن الشيخ محمد معصوم وعلو كعبه فى التصوف ومحاربته الباطل والمنكرات.. "إنه كان آية من آيات الله مثل والده الماجد، وقد نور العالم وبدد ظلمات الجهل والبدع بيمن توجيهاته العلية وأحواله السنية، وصار ألوف من الرجال محرما للأسرار الخفية وتحققوا بالحالات السنية بشرف صحبته العلية، حتى قيل: إن جميع من بايعه فى الطريقة تسعمائة ألف، وعدد خلفائه سبعة آلاف منهم الشيخ حبيب الله البخارى الذى كان من أعظم مشايخ خراسان وما وراء النهر فى زمانه تنورت بخارى بنور السنة بعدما غشيتها ظلمة البدعة، وشرف الخلافة والإجازة أربعة آلاف من مريديه بعد إيصالهم إلى رتبة الكمال[1].

وهناك قائمة طويلة لأسماء من نهلوا من عينه الثر من كبار أعيان المجتمع وخواصه الذين كانوا يشغلون مناصب عالية فى حياتهم وقد أفاد كلهم من الشيخ محمد معصوم إفادة كان لها تأثير عميق فى الحياة العامة آنذاك.

وقد اقتفى والده فى توجيه الرسائل إلى عظماء الناس الذين

---

[1] نقلا عن نزهة الخواطر ج ٥ للعلامة عبد الحى الحسنى.

كان لهم نفوذ فى المجتمع أو كانوا ذوى صوت مسموع فى وسط أو محيط خاص وهى تحتوى على معان عالية وبيان واضح للعقائد والكلام، والعبادات والمعاملات ومكانة الإحسان والتقوى وتدور حول تزكية النفس وتهذيب الأخلاق والتوصل إلى الله بصالح الأعمال والتقرب بإخلاص النية فى كل عمل.

وبعد.. فهذه عدة سطور عن الشيخ محمد معصوم الذى كان له أوفر سهم فى بناء مجتمع إسلامى أفضل فى الهند والعالم الإسلامى، وخلق جو من الإيمان والورع والزهادة والإيثار والتضحية فى ذلك المجتمع الأفضل الذى أقامه على أساس كلمة الإسلام المتين ورفعه على أنقاض الكفر والبدع والمنكرات.

* * *

حقيقة الحقائق معرفة الله
رسالة للشيخ محمد معصوم السرهندى

إلى كل من يريد الحقيقة
ويعرض عن الصورة ويبحث عن
الواقع ويكره المظاهر الجوفاء
أقدم هذه الرسالة

بعدما حاولت إنارة جانب من حياته الحافلة بجهاد طويل وكفاح مرير، الحياة التى قضاها كلها فى نشر دعوة الإسلام وبث رسالته إلى المجتمع الهندى، وأنفق كل لحظاتها فى دعم أساس الإيمان فى القلوب وإعلاء كلمة الله فى العالم.

يدين مجتمع الهند الإسلامى لهذا الشيخ الكبير- وحق له أن يدين - فى بقاء جمرة الإيمان فى القلوب، وانتقال شرارته من قلب إلى قلب ومن نفس إلى نفس، فإن غراس الإيمان والإخلاص الذى غرسه فى هذه البلاد آتى أكله كل حين بإذن ربه، ولا يزال يشعل النفوس غيرة وحماسة، ويوقد مجامر القلوب الخامدة نورا وضياء.

ومما قام به الشيخ محمد معصوم فى سبيل إصلاح المجتمع وتقويم القلوب، وتربية النفوس، طريقة تعلمها من والده الشيخ

أحمد السرهندى فى توجيه الرسائل إلى كبار البلاد، وعظماء الحكومة، ورجال العلم والدين، وهى تحمل فى جنبها من العلوم الجمة، والمواد الغزيرة والمعانى الرفيعة مالا يفقدها قيمتها وبهاءها ولا ينقصها رواءها وتأثيرها على مر الأيام والليالى، إنها تتحدث عن قضايا هامة ومسائل علمية وتعالج مشكلات الحياة والنفوس، وتبين مدى عظمة نبوة محمد ﷺ وعلو مكانته، وغاية رسالته التى جاء بها من عند ربه، وقيمة دينه الذى كان خاتم الأديان كلها وناسخ المال قبله.

وإلى القراء رسالة تجمع بين حقيقة الإيمان والمعرفة وسر خلود الأعمال إذا كانت عن حسن نية وصلاح قلب وزهادة نفس وهى التى تريدها الشريعة الإسلامية من متبعيها ويطالب بها الإيمان الخالص من المؤمنين.

ويتحدث الشيخ عن المعرفة الحقيقية ويتبسط فى الكلام وتأخذه نشوة الحب والغرام وتشتعل فيه نار المحبة والهيام فيخوض فى معانى الإحسان وينزل إلى أعماق القلب ويقول:

"إن الغاية التى تهدف إليها هذه الحياة إنما هى الحصول على معرفة الحق وهذه المعرفة على نوعين اثنين:

(١) المعرفة التى يشرحها العلماء الكبار.

(٢) المعرفة التى يمتاز بها الصوفية والعارفون عن غيرهم.

أما الأولى: فلها علاقة بالنظر والروية وطريق الاستدلال ولكن

الثانية تتعلق بالكشف والشهود. إن الأولى تدور حول العلوم وتبحث عن التصور والتعقل والثانية تدخل فى "دائرة الحال" وتبحث عن التحقق والشهود كما أن النوع الأول من المعرفة لا يملك على وجود العارف ولا يقطع صلته عن نفسه ولكن النوع الثانى يمتلك وجود العارف ويفنيه فى ذاته، إن الأول من نوع العلم النظرى الذى يوجد بالاجتهاد والاكتساب، والثانى مما له علاقة بعلم الحضور والشهود الذى ينقطع به العارف عن كل شيء ويفنى فى الحب الإلهى. إن المعرفة الأولى توجد مع الصراع النفسى وإنكار الذات لأن النفس لاتزال متصفة بالصفات الخسيسة ولا تخرج عن دائرة التمرد والعناد إلى حد الآن، لذلك فالإيمان فى هذه الحالة إنما هو صورة الإيمان دون حقيقته، وللأعمال الصالحة فيها صورتها لا حقيقتها ولأجل ذلك تكون نفس الإنسان فى مثل هذه الحالة لم تتخلص عن الشوائب والعلائق، فتتمادى فى معصية الله سبحانه وتعالى دون شعور منها بذلك فى أكثر الأحيان، ويسمى هذا الإيمان "الإيمان المجازى" الذى لا يخلو من النقص والفتور ولا يأمن زوال تأثيره وانقطاع مادته.

وأما النوع الثانى: من المعرفة فإنه يذيب العارف ويفنيه وينتج له إسلام النفس ويكون العارف بالله السالك طريقه فى هذه المرحلة مأمونا فى إيمانه من كل خلل أو نقص أو زوال تأثير،

وهناك تتجلى حقيقة الإيمان وحقيقة صالح الأعمال والحقيقة لا تزول أبدا فى أى حال وإنما هى دائمة باقية نامية فى كل حين، وإلى هذه الحقيقة أشار الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا آمنوا﴾.

وقد كان الإمام أحمد بن حنبل يطلب هذا الإيمان الحقيقى فاضطر إلى أن يبايع بشرا الحافى ويعتبره مرشدا ويسير فى ركابه كتلميذ متواضع حقير، ويخدمه كما يخدم الغلام مولاه بالرغم من منصبه العالى الذى كان يتبوأه فى العلم والتفقه والاجتهاد. وقد سئل عن ذلك فقال: "إن بشرا الحافى أعرف بالله من أحمد بن حنبل".

وهذا الإمام أبو حنيفة الذى يسمى بالإمام الأعظم لم يسع له البقاء على حاله من البحث والتحقيق والتفقه والاجتهاد رغم علو مكانته فى العلم وبلوغه إلى درجة الكمال فى الزهد والتقوى والخشية والإنابة ولكنه لم ير كل ذلك كافيا لوصوله إلى الله فأقبل على تحقيق هذه الغاية (معرفة الله وحبه) فى سنتيه الأخيرتين واعترف بأهميتها وقيمتها فى الحياة فقال: "لولا السنتان لهلك النعمان".

ومن الذى لا يدرى أن الإمام أبا حنيفة لم يكن عالما فقط وإنما كان قد ضرب بسهم وافر فى الأعمال أيضا وبلغ فيها إلى أعلى درجة، وهل هناك درجة أعلى من الاجتهاد والتفقه فى دين

الله؟ وهل تبلغ طاعة مبلغ تعليم علوم الدين وتدرسيها للناس؟ ولكنه لم يبال بأى شيء من ذلك ولم يجد فيه كفاية لنيل غاية فالتفت إلى تكميل حاله من معرفة الله والحضور أمامه بالقلب والروح.

فلنعلم أن الأعمال تنال من القبول والحظوة أمام الله تعالى إذا كان الإيمان مكتمل الجوانب، راسخة حقيقته فى النفس، داخلة بشاشته فى القلب، وأن الأعمال تتنور بكمال الإخلاص لله، وكلما كان الإيمان والإخلاص أتم كانت الأعمال أكثر ضياء وأعظم قبولا لدى الله تعالى.

إن كمال الإيمان والإخلاص كل ذلك له علاقة بالمعرفة الخالصة، والمعرفة ترتبط بالتفانى فى حب الله، فمن كان أرسخ فى عاطفة الحب والتفانى يكون أكمل فى الإيمان، فإن كفة إيمان أبى بكر الصديق رضى الله عنه وحده راجحة على كفة إيمان الأمة كلها، لأنه حمل من عاطفة الحب والتفانى ما لم يضارعه فيه احد حتى الأمة الإسلامية كلها لم تستطع أن تمثلها.

وملخص كلامى أن ينتبه لهذه المعانى كل شخص ويتأمل فى غايته الحقيقية بقلب يملؤه الصدق والإخلاص. وكل من رزقه الله تعالى هذا النوع من المعرفة والعلم يستحق كل تهنئة وتقدير ولا شك هو الذى وصل إلى الغاية القصوى ومثل حياة الإيمان واليقين وعاش فى عبادة وإنابة.

إن الله تعالى يقول: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ والمراد بالعبادة فى هذه الآية هى المعرفة الكاملة التى تصل الإنسان بالله تعالى، وتقطع نفسه عن الوشائج المادية والأواصر الدنيوية الضعيفة، وتربطه بعتبة الملك الجبار الذى خلق كل شىء وقدره تقديرا.

وأوصى كل من يحصل على هذه المعرفة أن يجتهد فى الحصول عليها بكل ما يملكه من قوة وموهبة، وينفق فى سبيلها كل رخيص وغال ويسرع إلى كل مكان يشم رائحتها فيه.

أسفا على الإنسان الذى لا يسعى فى سبيل المطلوب فى الحياة الفانية ولا يهتم باكتسابه اشتغالا بالأمور التافهة التى لا قيمة لها فى عين الله تعالى، وأخاف على كل من لم يهتم بغاية الحياة ولم يسع وراءها من شدة حساب يوم القيامة، ويا ليتنى عرفت ما سيعتذر به أمام رب العالمين غدا.

* * *

(٩)
ساعة مع السلطان أورنك زيب

لست أتحدث اليوم عن عارف انقطع عن الدنيا إلى زاويته، وأخذها مركزا لدعوته وإرشاده، ولا أتحدث عن ملك انقطع عن الآخرة إلى دنياه، واتخذ عرشا يجلس عليه جلسة الإمبراطور يأمر وينهى ويغضب ويرضى، ولكن موضوع حديثى اليوم رجل عظيم له مآثر كثيرة وكبيرة فى التاريخ الإسلامى، رجل عاش عيشة كلها عبرة ودرس وكلها كفاح وجهاد، ولقد قام وحده بأمور مهمة يصعب على جماعات أن تقوم بها، وأعطى للدنيا مثالا يحير العقول وللتاريخ نموذجا من أندر نماذج الحياة وأعظمها قيمة وتقديرا وهو السلطان أورنك زيب عالمكير أعظم ملوك الهند فى القرن الحادى عشر.

إن استعراضا سريعا لحياته تعطينا صورا عديدة ونواحى مختلفة وكلها عظيمة وجليلة، إنه عالم من علماء الدين بلغ فى علمه أرفع درجة بلغها العلماء الكبار وعارف من العارفين بالله وربانى تذوق معنى الحياة فاستخدمها كما أمر الله سبحانه

وتعالى، وصوفى عرف معنى التصوف والمعرفة فبلغ إلى ذروته، وملك من أكبر الملوك فى عصره وأعظمهم فى زمنه قام بتسيير دفة الحكومة قياما لم يوفق إليه إلا قليل من الملوك قبله، أقام دولة إسلامية فى فترة تطول إلى نصف قرن فى الهند، فساد العدل والطمأنينة فى البلاد وعاد الأمن والسلام إلى القلوب، وقوى فى عصره الضعيف، ونهض فى زمنه المظلوم، ونالت الحياة مطالبها ورجعت للمجتمع كرامته وعزه، وصارت البلاد كلها من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب جنة تمتع بها الناس على اختلاف مذاهبهم وديانتهم، وفردوسا إسلاميا كان فيها لمعانى الحب والرحمة والعدل والرخاء انتشار وذيوع.

وحسبنا كى نعرف علو مكانته فى التصوف والإحسان وبلوغه إلى أعلى درجة من المعرفة والربانية، أنه رغم شغله منصب الامبراطور الكبير الذى لا يشك فى كونه منصبا محرجا ومأزقا يستحيل للنفس منه أن تخرج نظيفة بريئة، ولكنه رغم ذلك استبقى على زهده وعفافه، وحافظ على نزاهته وعظمته بل وقداسة زهده ورغبته عن الدنيا وزخارفها بعد ما آل إليه منصب الحكومة حتى عد من أعظم ملوك الدنيا عدلا وشجاعة وشفقة على الرعايا وتفقدا لأحوالها، فقد عمل لإسعاد الناس، وترفيه الرعية وإقامة العدل ورفع المظالم وقمع شوكة الظالمين المفسدين فى الأرض أعمالا لم يوجد لها مثال إلا نادرا جدا.

إنه بعدما أعطى للدنيا نموذجًا أعلى للحكومة المثالية وقدم لها أعظم مثال لحياة ملك إسلامى استطاع أن يجمع بين الحكم والعلم، والمملكة والمعرفة والسلطان والتصوف، ويقوم بتأدية حق كل منها أحسن قيام كان لا يأخذ من مال الحكومة فلسًا ولا ينفق على نفسه إلا من كسب يمينه فكان يكتب المصاحف بخطه ليعيش بقيمتها عيش الزهد والفقر ويأكل من خبز الشعير ما يسد جوعه.

أليس عدل ساعة أفضل من عبادة أربعين سنة؟ بلى هكذا قال النبى ﷺ: "فمن شاء أن يرى مثال العدل والرحمة، والشعور بالمسئولية فلينظر إلى هذا الملك الفقير، والعارف بالله الذى أقام فى التاريخ الإسلامى أعظم مثال للعدل والمساوة، ومنح تاريخ الملوكية أسوة تكاد تكون فريدة فى نوعها جليلة فى شأنها عظيمة فى قيمتها.

ولنترك المؤرخ يتحدث عن قصة حياته بعدما صار ملكًا بنزاهة وبراعة وأمانة، يقول المرادى صاحب كتاب "سلك الدرر": السلطان المشهور سلطان الهند فى عصرنا وأمير المؤمنين وإمامهم، وركن المسلمين ونظامهم، المجاهد فى سبيل الله، العالم العلامة الصوفى العارف بالله والملك القائم بنصرة الدين الذى أباد الكفار فى أرضه وقهرهم وأضعف شوكتهم، وأيد الإسلام وأعلى فى الهند مناره، وجعل كلمة الله هى العليا وقام

بنصرة الدين، وأخذ الجزية من كفار الهند، ولم يأخذها منهم ملك قبله لقوتهم وكثرتهم، وفتح الفتوحات العظيمة، ولم يزل يغزوهم، وكلما قصد بلداً ملكها إلى أن نقله الله إلى دار كرامته وهو فى الجهاد. وصرف أوقاته للقيام بمصالح الدين وخدمة رب العالمين من الصيام والقيام والرياضة التى لا يتيسر بعضها لآحاد الناس فضلا عنه وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، وكان موزعًا لأوقاته: فوقت للعبادة، ووقت للتدريس ووقت لمصالح المعسكر ووقت للشكاة ووقت لقراءة الكتب والأخبار الواردة عليه كل يوم وليلة من مملكته، لا يخلط شيئًا بشىء. والحاصل أنه كان حسنة من حسنات الزمان ليس له نظير فى نظام سلطنة ولا مدان[1].

أرأيت كيف يصفه المؤرخ المعاصر بصفات عظيمة تكاد تكون منقطعة النظير فى سلطان امتلك دولة واسعة وقوة كبيرة، ومهابة عظيمة، ولا ينتهى المؤرخ الأمين بذكر هذا الفضل بل ويفيض فى الحديث ويضفى على حياة هذا الإمبراطور لونًا جميلاً من الثناء العطر فى ضوء الحقائق التى لا مرية فيها يقول: "اشتغل بالمملكة من سنة ١٠٦٨هـ وأراد الله بأهل الهند خيرًا فإنه رفع المظالم والمكوس وطلع من الأفق الهندى فجره وظهر من البرج التيمورى بدره وفلك مجده دائر ونجم سعده سائر، وأسر غالب ملوك الهند المشهورين، وصارت بلادهم تحت طاعته

(١) نزهة الخواطر، للعلامة عبد الحى الحسنى ج ٦ ص ١٣٤- ١٣٥.

وجيئت إليه الأموال وأطاعته البلاد والعباد ولم يزل فى الاجتهاد فى الجهاد ولم يرجع إلى مقر ملكه وسلطنته بعد أن خرج منه وكلما فتح بلادًا شرع فى فتح أخرى وعساكره لا يحصون كثرة وعظمة وقوته لا يمكن التعبير عنها بعبارة تؤديها حقها والملك لله وحده أقام فى الهند دولة العلم وبالغ فى تعظيم أهله حتى قصده الناس من كل البلاد.

والحاصل أنه ليس له نظير فى عصره فى ملوك الإسلام فى حسن السيرة والخوف من الله، والجد فى العبادة، وأمر علماء بلاده الحنفية أن يجمعوا باسمه فتاوى تجمع جل مذهبهم مما يحتاج إليه من الأحكام الشرعية فجمعت فى مجلدات سماها "الفتاوى العالمكيرية" واشتهرت فى الأقطار الحجازية والمصرية والشامية والرومية وعم النفع بها وصارت مرجعًا للمفتين[1].

كيف استطاع هذا الإمبراطور العظيم الفذ أن يجمع بين "الأضداد" بين الحكم فى هذه القارة العظيمة وتولى أمورها الصغيرة والكبيرة، وبين الصلوات والنوافل والذكر والعبادة والاشتغال بالعلم؟ كيف استطاع أن يعيش فى ضنك من الحياة وشظف من العيش يأكل أرغفة عديدة من الشعير من كسب يمينه وهو يملك خزائن الأرض، وقناطير مقنطرة من الذهب والفضة؟ وكيف قدر على مباشرة أمور الدولة الهامة من تحقيق الانتصارات

(١) نزهة الخواطر للعلامة الحى الحسنة ج٦ ص ١٣٤-١٣٥.

الباهرة والفتح العظيم رغم انهماكه فى القيام بواجبات الحياة المعنوية من إحياء الليالى والمحافظة على النوافل من الصلاة والصيام والذكر والدعاء ومن الاشتغال بالعلم والفقه والحديث والأدب؟ وذلك شأن الإيمان أيها السادة فإنه لا يرضى حياة تبتل وانقطاع فقط، ولا حياة ترف وتنعم وانغماس فى اللذات والانتصارات المادية فحسب، إنما الإيمان يقتضى أن يعيش الإنسان مفتقراً إلى الله ولو كان ملكًا. ضعيفًا أمام قدرة الله ولو كان من أقوياء الناس. عاجزًا مسكينًا وإن كان من أثرياء أهل العصر، وأن من ذاق حلاوة الإيمان أناب إلى الله فى كل شأن من شئون حياته ورضى من الدنيا بالكفاف واختار له منها ما يكفيه ويغنيه عن الخلق.

إن حياة أورنك زيب تجمع بين نواحى كثيرة وكثيرة وكلها مما يثير الإجلال والتقدير لهذا الرجل العظيم وللناس جميعًا على اختلاف مذاهبهم وأذواقهم فى حياته زاد يعينهم فى الوصول إلى الغاية وغذاء يمدهم فى تحقيق الهدف الأصيل والجهة المستقيمة للحياة.

ولا مانع من أن أقدم هذه الحياة العظيمة لكل نوع من أنواع الرجال ولكل طبقة منهم سواء كانوا علماء أو فقهاء أو ملوكًا، او مجاهدين أو صوفية أو عارفين فالكل يستطيع أن يستمد منها مددًا لحياته ودرسًا لجليله وأمته.

إلا أننا فى حاجة إلى أن ندرس حياة السلطان أورنك زيب دراسة واعية عميقة ونرى فيها صورة الإيمان الراسخ القوى الذى جعله من أعاظم رجال التاريخ وأخلدهم بمآثره وأعماله وخدماته الجليلة، ولولا هذا الإيمان لم يكن له شأن، ولم يكن له ذكر ولم تجر الألسنة بما جرت به من الثناء العطر والاعتراف بصنائعه العظيمة الخالدة.

إنه الإيمان وإنها المعرفة أيها السادة، وبذلك استطاع عالمكير أن يكون عالمًا وعارفًا وفقيهًا وأديبًا وملكًا، وبذلك استطاع كل إنسان فى العالم أن يصل إلى مكانة عليا ويتبوأ منصبًا رفيعًا.

أما العلو بدون الإيمان والرفعة بغير المعرفة فلا عبرة بهما ولا قرار، وكل بناء يرتفع على الرمان ينهار.

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنه وَهُوَ فِى الآخِرَةِ مِن الخَاسِرِين﴾.

* * *

(١٠)
ساعة مع العارف الكبير
الشيخ علم الله الهندى

لا أريد أن أخوض بكم إلى أعماق التاريخ، بل إنها قصة من الهند لشخصية كبيرة عاشت فى القرن الحادى عشر الهجرى وهى شخصية العارف الكبير الشيخ علم الله الهندى، عاصر الملك المغولى العالم العادل أورنك زيب، ذلك الملك المثالى الذى له فى تاريخ الهند الإسلامى روائع كثيرة، وفى مجال الفقه الإسلامى منجزات جليلة وهو الذى دون مجموعة ضخمة للمسائل الفقهية احتلت فى المكتبة الإسلامية الواسعة محلا رفيعا وعرفها تاريخ العلوم الشرعية بالفتاوى الهندية التى لاتزال مرجع علماء الفقه ورجال الفتوى فى كل مكان ولقد نال العلماء فى عهد هذا الملك الكبير تشجيعا لائقا فى كل فرع من فروع العلم، فقد انتدبهم لخدمة العلم والدين وعين لهم رواتب ومنحا استعانوا بها فى القيام بوظائفهم وتفرغوا من أجلها لشأن الدراسة وتدريس العلوم الدينية والإفتاء والتأليف، فارتفع بذلك قيمة

العلم والعلماء فى عهده وقامت المدارس والمعاهد الإسلامية بحسن عنايته واهتمامه.

كان الشيخ علم الله أحد العلماء الأعلام فى عصر هذا الملك الغيور وهو ينتمى إلى أسرة السادة التى تعرف بفرع "الحسنى الحسينى" ومعنى ذلك أن نسبه ينتهى إلى السيد حسن مثنى ابن الحسن بن على رضى الله عنه. وكان السيد حسن مثنى قد تزوج من السيدة فاطمة الصغرى بنت سيدنا الحسين - رضى الله عنه - وقد هاجر بعض أنجاله من المدينة المنورة إلى العراق فأفغانستان فالهند فى القرن السابع الهجرى، فتوسعت هذه الأسرة الشريفة فى الهند وانتشرت فى عديد من القرى والبلدان، ومن بينها قرية "رائى بريلى" حيث حل أحد أجداد الشيخ علم الله واستوطنها.

الشيخ علم الله الحسنى من أولئك الرجال الكبار الذين اختارهم الله لتربية الأجيال وأكرمهم بهداية الخلق وحلاهم بمكارم الأخلاق وفضائل الأعمال، ووضع فيهم قبولا عامًا ولقد كان هذا الشيخ مثالا حيًا لاتباع السنة والتخلق بأخلاق النبى ﷺ، وكان رمزًا للإسلام بجميع معانيه، أحرز مكانة عالية فى الربانية والمعرفة، والعلم والبصيرة الدينية، وقد خلف جيلا من أولاده وأحفاده كلهم كانوا من أولياء الله الذين جمعوا بين العلم والعمل والمصحف والسيف، تميزت أسرته بخصائص كثيرة

لا توجد مجتمعة فى أسرة واحدة إلا نادرًا جدًا.

ولد الشيخ علم الله فى سنة ١٠٣٣هـ وكان راغبًا عن كل ما ترغب إليه نفوس الأطفال منذ صغره، وقد شهد بعلو منزلته فى الصغر كثير من كبار العلماء والصالحين، ومما يحكى أنه ذات مرة كان يلعب مع بعض غلمان بلده وهو فى السابعة من عمره إذ مر عليه أحد كبار الأولياء فما أن وقع بصره عليه إذ توقف وظل يرنو إليه فسأله أصحابه عن سبب ذلك فقال لقد رأيت فى هذا الولد سيما العلم والمعرفة، يعلو وجهه، فما أسعده وما أسعد أبويه، لابد أن هذا الولد سيهدى خلقًا كثيرًا فى الإسلام، ويتنور به العالم بأسره وسيكون فذًا فى عصره وتاريخه.

ولما استقبله ريعان الشباب بدا لخاله السيد أبو محمد أن يبحث له عن وظيفة يقيم بها أوده ويطلب بها معاشه، وكان السيد أبو محمد مرتبطًا بالبلاط الملكى فى عهد شاهجهان فاستطاع أن يذهب به إلى البلاط ويطلب له وظيفة وظل الشيخ علم الله إلى البلاط وهو فى فترة التدريب العملى، ولكنه لم يعجبه ذلك وأحس بانقباض فى نفسه إلا أنه لم يتمكن من الإنكار إجلالا لخاله السيد أبو محمد، وذات ليلة من الليالى حدث له ما كان سببًا لانصرافه عن وظيفة البلاط والإقبال على وظيفة الله.

كان من عادة الملك شاهجهان أن يحرس عرشه أربعة حراس طول الليل إذا كان فى سفر، وذات مرة حل الملك فى مكان فلما

استيقظ فى الليل سأل عن الحاضرين فلم يجد أحداً وكان الشيخ علم الله قريبًا منه فأجاب وأخبره باسمه وكانت الليلة ذات برد ومطر ثم استيقظ بعد برهة من الوقت وعاد يسأل عن الحاضرين فلم يجد أحداً وأجابه الشيخ علم الله وكان قريبًا منه، وهكذا مضت الليلة كلها فى سؤال وإجابة، ولما أصبح الملك قال للشيخ علم الله، لم نجد الليلة أحداً غيرك، وسر بحضوره وشعوره بالمسئولية وأجازه بجوائز ثمينة وبخلعة ملكية ولكن الشيخ علم الله لم يفرح بذلك وبدأ يتأسف على فوات هذه الليلة فى خدمة الملك وقال فى نفسه "إننى لمجرد خدمة مخلوق بت ساهراً فاليتنى قضيتها ساهراً فى خدمة ملك الملوك خالق الكون الذى يستطيع أن يجيزنى بنعمة لا تفنى وبجائزة لا تنتهى، إنه الملك الذى لا يحجب نفسه بحاجب إذا كان ملوك الدنيا يحجبون أنفسهم بالحجاب والحراس فإن بابه مفتوح لكل غنى وفقير صغير وكبير وهو الذى يملك مصير العباد والبلاد كلها فلماذا لا أقبل عليه ولا أخضع له".

أزعجه هذا الخيال حتى نفد صبره، ولم يلبث أن فر من خيمة الملك حسراً حافيًا فى بذلته الليلية، ونادى فى الجماعة قائلا: إننى أبحث كل متاعى وممتلكاتى فمن أراد أن يأخذها فليأخذها. وأسرع الناس وتهافتوا عليها وأخذوها وبلغ خاله ذلك فجاء وحاول أن يقنع ابن أخته الشيخ علم الله ولكنه أبى وقال: يا

خال إننى أقدر اهتمامك بشأنى وعنايتك بحالى ولكن ماذا أفعل إنه لا يتحرك فى جوفى إلا قلب واحد لا يستطيع أن يقوم بأداء وظيفتين متعارضتين فاتركنى وشأنى، ودع عنك الاهتمام بوظيفتى فى البلاط، وأراد أن يقنعه إخوته وأصدقاؤه أيضًا إلا أنه أبى ولم يتنازل عن قضائه.

ولم يزل الشيخ علم الله يتعمق نظره فى تفهم أسرار الحياة والسكون وصلة الخلق بالخالق ويتدرب على المجاهدات الشاقة تزكية للنفس، يشتغل حينًا بالاحتطاب وبيع الحطب فى السوق، وحينًا آخر يحمل المياه العذبة إلى بيوت الناس ويأخذ أجرة يسيرة مقابل ذلك، ثم حداه الشوق إلى البحث عن عارف يستفيد منه ويتعلم لديه علم الدين والأخلاق والتزكية حتى وصل إلى زاوية العارف الكبير السيد آدم بنورى فى لاهور. وصادف أن العمال كانوا مشغولين برم بناء الزاوية وتشييد ما تهدم منه فشاركهم وقضى بعض الوقت مع العمال فى نقل الطوب والطين ثم حضر إلى الشيخ آدم بنورى وسلم فرد عليه قائلا : " تعالى يا سيدى إلى ميدان الرجال وبيض وجهك" ثم بشره بأشياء كثيرة وودعه.

وبعد فترة قليلة من ذلك ورد السيد آدم بنورى مدينة دهلى فحضره الشيخ علم الله وكان ذلك حوالى عام ١٠٤٩هـ الزمن الذى لم يتجاوز فيه عمره ١٦ سنة وهو عمر صغير ولا شك،

واستطاع أن يفوز فى مثل هذه السن المبكرة بكثير من الدرجات العالية فى المعرفة الربانية، وقد منحه شيخه السيد آدم شهادة الأجازة والخلافة فى التربية والتزكية على أنه لم يقض لدى هذا الشيخ إلا عدة أيام فقط، فلما ودعه قال له الشيخ علم الله إن فى ديارنا كثيراً من كبار أولياء الله فمالى ولعمل التربية أمام أولئك الجهابذة من العلماء والشيوخ. فأجابه الشيخ آدم: يا شيخ علم الله إنك ستكون بينهم كالشمع الزاهر وسط المصابيح الضئيلة، أو كالشمس إزاء الكواكب.

إن الميزة الحقيقية فى حياة الشيخ علم الله هى الحرص الشديد على اتباع السنة والعمل بالعزيمة، إنه ارتقى القمة فى هذين الجانبين ولم يرض بأى حال أن يتنازل عن اتباع السنة والتمسك بالعزيمة، وذلك مع مراعاة كل جانب فى كل وقت مع كل شخص، لم يوجد له نظير فى الاهتمام بالسنة فى العهد العالمكيرى كله ولا بعده رغم كثرة العلماء والمشايخ فى كل زمان، وتلك مزية فى حياة الشيخ علم الله سجلها التاريخ الإسلامى بمداد من الفخر والاعتزاز وهو ينشد بلسان الحال ما قاله الشاعر العربى قديمًا:

أولئك آبائى فجئنى بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجامع

كان يعتقد أن لاتباع السنة دورا كبيرا فى التقرب إلى الله وجلب محبته ورضاه، وذلك أمر لا يتيسر بشيء كثير من الرياضات والمجاهدات الشاقة، ولا يتسنى بأى تربية أو تعليم، إن حياته كلها كانت شهادة على هذه العقيدة وعلى أن أغلى جنس فى سوق العبادات وأكبر ذريعة للتوصل إلى الله فى كل زمن وكل بلد، وفى كل أمة إنما هو اتباع السنة والعمل بالعزيمة فبهما يستطيع المرء أن يقطع مسافة الأعوام فى شهور ومسافة الشهور فى أيام ومسافة الأيام فى لمحات.

يتحدث عن حرصه الشديد على التمسك بهذا الجانب أحد تلاميذه وهو الشيخ عبد الحكيم السيالكوتى، يقول: "الشيخ علم الله أحد رجال الله، كامل فى الورع والعلم يتحلى ظاهرا وباطنا بكمال اتباع السنة، حياته وأوقاته كلها مزدانة بالسنن والمستحبات، عرف فى العالم شرقا وغربا بتقواه واستقامته، إنه يعمل بالعزيمة فى كل حال مع كل شخص أيا كان، فإنه علم بما إذا عمل من أولاده وعارفيه بالمباح والرخصة أنكر عليه ذلك ولكن إذا وجدت بدعة عند أحد منهم - وأعوذ بالله منها - مقته للغاية حتى لم يرض بأن يرى وجهه مالم يتب ويستغفر الله.

ألف رسالة باسم "قوة العمل" تحتوى على حقائق ومعارف دقيقة لا يستطيع أن يستسيغها كل شخص، وكان يخفى أحواله ويبدى التواضع والعجز، وكان أكثر الناس يتذكرون الصحابة

رضى الله عنهم برؤيته، فكلما رأوه قالوا: إن شبه حياة الصحابة رضى الله عنهم يتجلى فيه، وكان نموذجا صادقا للأخلاق الفاضلة عاملا بالخلق العظيم.

كان الشيخ علم الله يقضى كل لمحة من ليله ونهاره فى اتباع السنة والتمسك بالعزيمة فى أعماله، دخلت السنة فى كل جزء من حياته وامتزجت بلحمه ودمه حتى أصبحت له ذوقا وحالا لا يفارقانه فى أى لحظة ولا يعيش بدونهما شأن السمكة التى لا تعيش خارج الماء.

يتميز كثير من أهل المعرفة والصلاح بالإكثار فى العبادة وإحياء الليالى الطوال فى الذكر والدعاء والنوافل، وقد بلغوا القمة فى هذه الناحية وعاشوا فيها مما يبعث على الاستغراب والدهشة سيما فى هذا العصر المادى الذى لا نصيب فيه للعبادات والمجاهدات إلا ضئيلا جدا، وللشهوات فيه جولة وصولة فى كل مكان، ولكن قلما شهدنا رجلا عظيما فى كل شىء، له أتباع وأنصار، وله جماعة من المعجبين به والمتفانين فى حبه ثم هو لا يتلكأ فى القيام بخدمات الناس وأداء واجبات الحياة بيده أمام الأشهاد، ولا يتردد - رغم عظمته وعلو مكانته - فى السبق فى التسليم على الصغار وتكنيس الدار، وملء الجرار والمشاركة مع الخدم والأهل فى جميع شئون البيت وتفقد الجيران بالذهاب إليهم، والسؤال عما يحتاجون إليه من خدمة،

والاحتطاب من الغابات ونقل الحطب إلى بيته وبيوت أصحابه على الرأس أمام أتباعه وخدمه، وحمل الأثقال، وشراء الحاجات للأرامل والأيتام، كل ذلك امتحان كبير لأى إنسان وثقيل على النفس غاية الثقل، ولكن الشيخ علم الله أحرز قصب السبق فى هذا المجال وأدى هذا الامتحان ونجح فيه بتفوق وامتياز، ولا أدل على علو منزلته وبلوغه إلى درجة الكمال فى معرفة الله من أنه لم يكن للنفس حظ لديه بل ولم يكن عنده ما يسمى بالشهوات والأهواء لأنه قهر النفس وقهر كل ما يتبع النفس.

والذى صرع نفسه وتغلب عليها وأذلها أصبح كأنه تخلص من جميع الأدواء الروحية والأسقام القلبية، وارتقى إلى درجة الولاية والربانية التى هى أصعب من كل شىء والتى لا يتسنى لكل شخص أن ينالها أو يرتقى إليها، ولعل ذلك هو الغاية الأسمى لكل مؤمن مجاهد ومسلم مخلص يطلع على ما بينه وبين ربه من قربات ووشائج ويدرك غايته التى خلق من أجلها، ويتفانى فى حب الله ورسوله ويضع الأمور كلها فى محلها الصحيح فلا إفراط ولا تفريط ولا عدوان ولا تقصير، إنما هى الطريق الوسط التى ترافقه فى كل مناسبة وكل حين وتمسك بيده كلما حاول الحيد عن الجادة أو الانصراف عن الغاية.

أغناه الله تعالى بعواطف اتباع السنة ورفض البدعة وكراهيتها

فكما كان جد حريص على تتبع السنة والاصطباغ بصبغتها كان يفوز بدوافع المقت الشديد للبدعة حتى إذا علم أن فلانا يبتدع يمقته أشد المقت ولا يرضى بالنظر إلى وجهه والرد على سلامه فضلا عن لقائه وقبول هداياه. وكذلك فى المناسبات الاجتماعية والفردية إذا ظهر له شيء يعارض سنة الرسول ﷺ احتج عليه وفر منها، لقد كان بمبدأ "الحب فى الله والبغض فى الله" فإن صدر عن أحد عمل خلاف الشرع أبدى الكراهية والنفور وقطع عنه كل علاقة مالم يتب ويرجع إلى الله.

كان خوان الشيخ علم الله عاما يستوى فيه كل صغير وكبير وضيوف وأولاد فلا يفرق بين نفسه وأتباعه، ولا يميز بين أهله وذويه وبين الغرباء والزائرين، لقد كانت المعدلة والمساوة تسود الخوان بغاية من الدقة والإتقان، فإن زاره وفد أو ضيف يهتم بخدمته وضيافته ثلاثة أيام ويشرك جميع أفراد البيت فى ذلك، ولم يكن يأمر بطبخ طعام خاص إلا لضرورة، إنما كان يقتفى السنة فى ذلك ويحرص على تنفيذها فى جميع شئون الطعام والإطعام، ولما علم بذلك بعض أهل العلم من عصره حاولوا أن يتبعوه فى الخوان وإطعام الطعام، ولكنهم لم يتمكنوا من ذلك، وعجزوا عنه، واعترفوا بفضل الشيخ علم الله فى هذا المجال أيضا.

وكانت تنوبه الفاقة فينة لأخرى، وتستمر أياما عديدة فى بعض الأحيان وذات مرة صنع طعام أربعين نفرا، وذلك بعد فاقة دامت

ثلاثة أيام فإذا بوفد مؤلف من كبار خلفائه ومعهم ثمانون نفرا يزورونه فأمر الشيخ بتنصيف الطعام وإرسال النصف إلى الحرم والأولاد وتقديم النصف الثانى إلى الضيوف، ففعلوا وكفى طعام عشرين رجلا لأكثر من مائة نفر، ولما فرغوا من الأكل رأوا أن الطعام لم ينقص بل ولا يزال كما كان.

أما ورعه الذى كان صبغته الغالبة فكان بالغا مداه وذلك هو العامل الرئيسى الحقيقى الذى ارتقى به إلى هذه الدرجة من الربانية والفضائل الخلقية، بل إلى هذه المنزلة من العبودية الحقيقية حيث يتفانى العبد فى حب المعبود ولا يرضى بأى شىء سواه ولا يتعلق قلبه بأى شىء من متاع الدنيا وملذات الحياة الفانية ولا يعيش إلا فى طاعة رسوله ﷺ، وقد كان الشيخ علم الله ربانيا من هذا النوع، إنه عاش على قمة من الحب والطاعة وفى غاية من الورع والتقى وهو فى هذه المرحلة واجه كثيرا من الامتحانات من قبل أتباعه وأصحابه، ومن معاصريه ولكنه لم يتعثر فى أى مناسبة وإنما ازداد رسوخا وثباتا فى عقائده وصفاته.

أحب الرسول ﷺ حبا جما حتى تأصلت جذوره فى نفسه فعاش فى نوع من الغرام والنشوة بشخصيته ﷺ، وله فى ذلك حكايات عجيبة تشهد على عواطف الحب الصادق والصلة القريبة بالرسول عليه الصلاة والسلام، وندرج هنا حكاية رواها الشيخ عبد الرحمن الذى كان من أجلة أصحاب الشيخ علم الله، تفيد

مدى الإعجاب بالنبى ﷺ الذى كان يكنه فى نفسه، فيقول:

"ذات ليلة رأيت فى المنام أن الشيخ علم الله خرج من بيته وبيده الحبل والفأس، وأيقظنى فأصحبنى ورجالا آخرين إلى الغابة فاحتطبنا جميعا وحملنا حزمات الحطب على رؤوسنا وحمل الشيخ علم الله حزمة على رأسه، واتجهنا إلى الزاوية فلما وصلها أنزل الحزمة وتوضأ ودخل المسجد، وهناك جاءه أحد أقربائه ممن كانوا يقرأون عليه القرآن وأراد أن يقرأ عليه، ونظرت فإذا الرسول - ﷺ - جالس فى ركن من المسجد، فدعانى وقال لى: يا عبد الرحمن اذهب إلى هذا الرجل وقل له إن ولدى علم الله متعب فى هذا الوقت لما قد حمله من الحطب على رأسه فليؤجل قراءته عليه إلى وقت آخر.

ولما استيقظت إذا بالمنام يتمثل الحقيقة، خرج الشيخ علم الله إلى الغابة واحتطب هو وأصحابه وحمل الحطب على رأسه وجاء به إلى المسجد وتوضأ ودخل المسجد حتى جاءه ذلك الرجل الذى كان يقرأ عليه القرآن فلما أردت أن أمنعه عن القراءة عليه فى هذا الوقت غضب وقال: أنت تمنعنى عن قراءة القرآن، فقلت له نعم أفعل ذلك امتثالا لأمر رسول الله ﷺ، فقال الشيخ علم الله: صدق عبد الرحمن، أجل هذه القراءة لوقت آخر.

هذا وللشيخ علم الله مواقف كثيرة فى التمسك بالسنة ورد

البدع والمنكرات، والعمل بالعزيمة، وقد استطاع بهذه الروح المؤمنة والأخلاق الفاضلة والسيرة الطيبة أن يؤثر فى المجتمع الذى عاش فيه ويقوم بإصلاح عام يشمل الأدانى والأقاصى كلهم ويرجع خلق كثير إلى الدين الصحيح بالكتاب والسنة، ويقدموا نموذجا لحياة المسلم النزيه، ومثالا كاملا للطاعة وللامتثال، توفى الشيخ علم الله فى ٩ ذى الحجة سنة ١١٩٦هـ عن عمر بالغ ٦٣ سنة، وفى نفس هذا اليوم رأى الملك المعاصر أورنك زيب عالمكير رؤيا تفيد أن الرسول ﷺ توفى اليوم وأن الملائكة تحمل جنازته إلى السماء.

أزعجت الرؤيا الملك فسأل العلماء عن تأويلها، فقالوا إن لهذه الرؤيا دلالتها، ويبدو أن الشيخ علم الله الذى كان من كبار المحبين والمتبعين لسنة الرسول ﷺ توفى اليوم، وأمر الملك كاتبه بتسجيل هذا التاريخ وما لبث إلا ساعات إذ جاءه النعى، وسأل الملك أصحاب التأويل عما أرشدهم إلى هذا التأويل فور بيان الرؤيا لهم، فقالوا: "إننا لا نعلم أحدا من المعاصرين من يضارعه فى اتباع السنة، وحب الله والرسول ﷺ" رحمه الله رحمة واسعة.

* * *

(١١)
ساعة مع شيخ الإسلام ولى الله الدهلوى
١١١٤هـ ـ ١١٧٦هـ

فى فجر القرن السابع عشر الميلادى انجب التاريخ الإسلامى فى الهند زعيما من أكبر زعماء العلم والدين، وقائداً من أعظم قادة الجيل الإسلامى ورائداً له فضل أكبر فى نشر الأفكار الصالحة والعلوم القيمة، وشق الطريق السوى فى خضم الطرق، إنه أشعل القلوب قلقًا واضطرابًا على الظروف الراهنة وعرض على الأمة الإسلامية صورة جميلة للبقاء والتعمير، كانت مبعث حركة بناء للمجتمع الإسلامى من جديد وفاتحة عهد جديد يتعرف الناس فيه إلى حياة تكون أحسن نموذج لحياة المسلم، ألا وهو شيخ الإسلام الإمام ولى الله الدهلوى.

كان مولد شيخ الإسلام قطب الدين ولى الله بن عبد الرحيم الدهلوى بعد ثمانين سنة من وفاة الشيخ أحمد السرهندى المعروف بمجدد الألف الثانى وهى فترة مظلمة فى تاريخ المسلمين فى الهند، فقد كان الملوك يستنفدون كل طاقاتهم فى نهب اللذات وإيثار الراحة على التعب للرعية والبلاد.

وكانت للعلوم التقليدية والعصبيات والتعسف صولة على الأذهان، والأفكار وكانت البلاد كلها تعانى أمراضًا خلقية وأدواء روحية من عبادة للنفس والمال، والقلق والنهب والظلم والقسوة مالا نهاية له.

وقد كان ظهور هذا الإمام الكبير فى مثل هذا الجو القاتم بمثابة نور فاجأ الظلام وأحاله إلى ضوء فى طرفة عين فقد مسح الغبار من وجه الأمة الإسلامية التى كانت تعيش على هامش الحياة، لم تكن لها علاقة بصميم قضاياها، وإنما كانت منهكة فى أمور لا تهمها فى الدين والدنيا، وقد نسيت وظيفتها، وتغافلت عن واجباتها، واقتنعت بالدون من مكانتها، ورضيت بالقليل من حظها.

ولست الآن بصدد استعراض لحياة شيخ الإسلام ولى الله الدهلوى فإن له مناسبة أخرى، ولكن الذى يبعثنى على الكتابة حول هذه الحياة هو أن أبحث فى الناحية التى تهمنى الآن وتهم القراء وهى ناحية الروح والمعرفة، التى بلغت به أرفع درجة من العظمة والأمانة والتى كانت السبب الوحيد المباشر لفتح بصيرته وسعة نظره وإحرازه منزلة عليا فى العلوم والمعارف والابتكار فيها وإبداع نظريات وأفكار إسلامية بحتة لا تزال غرة فى جبين المكتبة الإسلامية وعزة لزمرة العلم والعلماء فى هذه البلاد.

إن الشيخ ولى الله بن عبد الرحيم الدهلوى لم يعرف فى

الناس بعارف انقطع عن الدنيا بزاويته، وتجرد عن الناس فاتخذ لنفسه ركنًا من الأركان يجلس فيها كالنساك والمتبتلين ولكنه كان من كبار العارفين بالله حتى استطاع بقوة علمه أن يخوض بحرًا من المعرفة ويغترف منه ما يشفى به غليله ويشرح للناس معانى دقيقة لم يكونوا يعرفونها ويبين لهم من هذه المعانى ما يأخذ الألباب ويحير العقول.

وقد شرح الشيخ الجانب الروحى فى الإسلام وأفاض فى شرحه وبيانه فأتى بحقائق وعلوم وأسرار ونكت لم يطلع عليها الناس ولم تخطر على بالهم، فهيأ لهم فى علوم السلوك والإحسان مكتبة زاخرة بمواد غزيرة ومعان دقيقة، لاتزال جديدة على قدمها، وتفيض حيوية وروحًا وقوة وعلمًا.

يقول العلامة عبد الحق الحسنى فى كتابه "نزهة الخواطر" ومنها (أى ومن العلوم التى أنعم الله بها عليه) آداب السلوك وعلم الحقائق فإنه أفاض من ذوارف المعارف على أهلها سجالا لأنه كان جامعًا بين الطرق الثلاثة من السمع والفكرة والذوق فلا يتجلى له شيء من السر الغامض فيقبله إلا بعد ما شهد بصحته شاهد صدق من المعقول والمنقول.

"وذكر الشيخ غلام على العلوى الدهلوى فى "المقامات" أن شيخه مرزاجان العلوى والدهلوى كان يقول: أن الشيخ ولى الله قد بين طريقة جديدة، وله أسلوب خاص فى تحقيق أسرار

المعارف وغوامض العلوم.

وإنه ربانى من العلماء ولعله لم يوجد مثله فى الصوفية المحققين الذين جمعوا بين علمى الظاهر والباطن، وتكلموا بعلوم جديدة إلا رجال معدودون.

إن العمل لإصلاح القلوب وتزكية النفوس لا يحتاج دائمًا إلى الزوايا والتكايا، ولا يقتضى أن يكون المرء قد تنسك وتزهد فى الظاهر والباطن، بل إن ذلك يتحقق أيضًا بجهود خفية، ومساعى باطنة قد لا تنكشف على الناس.

وقد يكون العارف يصلح الفساد ويزيح السيئات، ويمحو الخرافات وهو مشتغل به عن طريق لا يراها الناس أو يرونها ولكن لا يعدونها من ذلك النوع، رغم أنه منهمك فى قلع شجرة الفساد، ومعالجة الداء العضال.

كذلك لم يجلس الشيخ ولى الله فى زاوية، ولكنه أتى فى هذا المجال مالم يأته كثير من العارفين، وقام بعمل الإصلاح والتزكية قيامًا لم يوفق إليه إلا قليل منهم.

فقد ألف فى هذا الموضع كتبًا كثيرة وكلها يحمل فى المعانى الغزيرة والعلوم الدقيقة ما ينور العقل، ويغذى العاطفة والوجدان.

ولو اخترنا كتابًا واحدًا منها لنبحث عنه، ونتفقد معانيه وما يحويه من كنوز العلم والمعرفة ـ لصعب علينا فضلا عن جميع ما

ألفه فى هذا الموضوع.

لم يكن الشيخ ولى الله زعيمًا دينيًا فقط ينبه الناس من سباتهم العميق ويشعل فى القلوب جمرة الإيمان والمعرفة والحب والحنان، بل وقد كان يتزعم العلم والمعرفة والدين ويتناول كل ذلك فى وقت واحد.

ينتقد كل ما يراه مخالفًا لروح الدين، ويتناول كل ما يجرح كرامته بنقد لاذع وزجر مرير، سواء كان من طبقة العلماء أو من جماهير الناس، وقد بلغت به الجرأة الدينية إلى أنه نادى العلماء والصوفية فى عصره وسألهم إصلاح الطرق التى يتبعونها فى سبيل تزكية النفس، وأبان لهم الفرق بين التصوف الحقيقى الذى يتناول معنى الإحسان والوصول إلى الله وطلب مرضاته، والتصوف المجازى الذى ينحصر فى الرقى والتمائم، وألف فى كل ذلك كتبًا قيمة لئلا يختلط الإحسان بغيره، ولا يتشوه وجه التصوف الحقيقى بالتصوف الذى ليس من الدين فى شىء.

إن التصوف الذى يدعو إليه الشيخ ولى الله إنما هو الإحسان فى أتم معانيه، وأكمل صورته، إنه يشرح علاقة الخلق مع الخالق بأن يتصل الإنسان بالله تعالى ويتقرب إليه بإخلاص العمل له كأنه يراه فى كل حين، ويسمع حثيثه، فإن لم يكن يراه ويسمع فإنه سبحانه وتعالى يراه ويراقب عمله فى كل حين وآن.

أما مذهبه فى التصوف فواضح، بين، لا غموض فيه ولا التواء

يقول فى كتابه: "التفهيمات الإلهية" وهو يتحدث عن التصوف.

"ليس منا من لم يتدبر كتاب الله، ولم يفهم حديث نبيه ﷺ، ليس منا من ترك ملازمة العلماء" (أعنى الصوفية) الذين لهم حظ من الكتاب والسنة، أو الراسخين فى العلم الذين لهم حظ من الفقه، أما الجهال من الصوفية، والجاحدون للتصوف فأولئك قطاع الطرق، ولصوص الدين فإياك وإياهم، جعلنا الله سبحانه وتعالى ممن يطيعه، ويتبع رضوانه، ولا يشرك به شيئًا فإنما نحن به وله.

هذا وقد استمر الشيخ ولى الله يكافح ويجاهد فى سبيل نشر العلوم الدينية وإبداع الأفكار والآراء. عن طريق التأليف والتدريس والكتابة والتوجيه، حتى عم نفعه فى الهند وما والاها من الأقطار الإسلامية بل وقد استفاد منه علماء الإسلام فى البلاد العربية، ونالت مؤلفاته إعجابًا منهم فاتخذوها مصادر لكتاباتهم فى موضوع العقائد والأخلاق وفلسفة الشريعة الإسلامية.

إن الجهود التى بذلها شيخ الإسلام ولى الله الدهلوى فى حقل العلوم الدينية وشرح العقيدة الإسلامية وجمع كنوزها فى أشكال شتى لتنوء بها عصبة من جماعات العلماء وفرقة المؤلفين الكبار، بل إنها أعمال لا يتسنى للمجامع العلمية الكبيرة أن تقوم بها فضلا عن رجل واحد لم يتعلم فى جامعة كبيرة ولا زار مراكز العلم والثقافة وعواصم العلم والأدب، وإنما

بقي يقرأ ويؤلف في بلده وعلى رجال عصره، فكيف أمكن له هذا العمل الجليل، وكيف استطاع أن يحتل هذا المكان العلمي الكبير؟ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

لقد توفي هذا الإمام الجليل، حكيم الإسلام وفيلسوفه والذي قام بعمل التجديد الديني والعلمي في شبه القارة الهندية سنة ١١٧٦، وقد أفاد العالم كله من نفثات يراعه ونفحاته، وخلف للعالم الإسلامي مكتبة قيمة حافلة بالعلوم، ثرية بالمعاني عامرة بالأفكار البناءة والنظرات السديدة.

لقد كان عارفا في طليعة العارفين، وكان علمه سببا لوصوله إلى الله ومعرفته، فكان عارفا قبل أن يكون عالما كان نابغة من نوابغ الإسلام. لم يعرف له التاريخ المعاصر مثالا في خصائصه التي حملها ومزاياه التي انفرد بها.

سلام الله ورحمته على روحه الطاهرة

* * *

(١٢)
ساعة مع الشيخ عبد العزيز الدهلوى

رجل جمع بين العلم والإيمان، وحاز قصب السبق فى كل مجال من مجالات الفضيلة، أحرز بذكائه النادر، وفقهه العميق فى الدين شهادة النبوغ والكمال فى سن مبكرة وتبوأ منصب الإفادة والتدريس ولم يتجاوز عمره خمسة عشر عامًا، فتمكن من جلائل الأعمال، وغرر الخدمات مالم يتيسر لكثير من كبار العلماء والعارفين.

إنه الشيخ عبد العزيز الدهلوى نجل شيخ الإسلام الشاه ولى الله الدهلوى سيد العلماء وابن سيدهم فى عصره، وقد لقبه بعض العلماء سراج الهند وبعضهم حجة الله، ولد فى رمضان سنة ١١٥٩ وحفظ القرآن وأخذ العلوم عن والده وعن أساتذة العلوم الدينية والشيوخ الكبار فى عصره فكان من عباقرة الزمان وأفذاذ الرجال.

احتل الشيخ عبد العزيز مكانة عليا للعلم والدين، وقام بخدمتهما قيامًا لم يوفق إليه إلا رجال معدودون فى التاريخ الإسلامى وجمع بين نواحى متعددة وجوانب مختلفة من العلم

والأدب والدين، والمعرفة والطريقة والسلوك، والكتابة وتأليف العلوم والتدريس فأفاد الخلق بذلك كله وأسدى إلى زمرة العلماء وجمهور المسلمين خيراً كثيراً احتضن التاريخ كثيراً منه وذهب أكثره ضياعًا.

يتحدث التاريخ - وهو المعول الوحيد لمعرفة الأحوال والاطلاع على المعلومات - بل ويحلو لى أن اقول:

يتحدث المؤرخ الأمين العلامة عبد الحى الحسنى صاحب نزهة الخواطر : "كان رحمه الله أحد أفراد الدنيا بفضله وآدابه وعلمه وذكائه، وفهمه وسرعة حفظه اشتغل بالتدريس والإفادة وله خمس عشرة سنة، فدرس وأفاد حتى صار فى الهند العلم المفرد، وتخرج عليه الفضلاء وقصدته الطلبة من أغلب الأرجاء وتهافتوا عليه تهافت الظمآن على الماء.

هذا وقد اعترته الأمراض المؤلمة وهو ابن خمس وعشرين فأدت إلى المراق والجذام والبرص والعمى، ونحو ذلك حتى عد منها أربعة عشر مرضًا مفجعًا.

ولكنه بالرغم مما أصابه من هذه الأمراض الأليمة لم ينثلم حده لشيء منها، ولم يترك المرض يفتك به ويعجزه عن تأدية واجباته ومسئولياته التى ألقاها الله على عاتقه إنما رضى بقدرة الله على ما أصابه، وبقى يكافح فى سبيل نصرة الدين، ونشر دعوته وعلومه، ويغامر بنفسه فى معركة تحقيق ذاتيه الإسلام ورسالته،

التى كتب الله لها أن تكون مفتاح سعادة البشرية، ومصدر الإشعاع الروحى فى الإنسان.

ولم يهتم، ولم يكتئب على ما واجهه من آلام ونكبات ولم يلق إليها بالا واستمر فى عمله كأن لم يكن شىء، واشتغل بجهاده الميمون يشرح للناس دينهم، ويبين لهم معانى الإحسان والسلوك، وحقائق الكتاب والسنة ويحتشد عليه جمع كثير من الوافدين الذين يأتون من مدن بعيدة ليتلقوا منه درس الحديث والقرآن، ويفيدوا منه معلومات عن الحياة الإسلامية والأخلاق النبوية، والآداب الإلهية.

وقد أقعده المرض فى آخر حياته وأعجزه عن الجلوس فى مجلس ساعة. ولكنه لم يخضع أمام هذا العجز وشدة المرض أيضًا، وإنما اختار طريقًا آخر للإفادة والتوجيه والناس حوله يمشون وهو يدرس ويفتى، ويوجه الناس إلى طريق الخير والصلاح ويرشدهم إلى ما فيه النجاح فى الحياة الدنيا والنجاة فى الآخرة.

وهكذا دأبه كل يوم لا يتعب من الإفادة والتدريس والفتيا والكلام حول المباحث العلمية والإلهية، وإنما كان يجد غذاء قلبه وشفاء نفسه فى الاشتغال، لما أنه كان ممن ذاق حلاوة الإيمان فلم يحب أن يقتصر بذلك لنفسه بل أراد أن تعم هذه الحلاوة واللذة إلى قلوب الناس فيجدوا ما يجده ويحسوا ما

يحسه.

يقول مؤرخ الهند الكبير العلامة عبد الحى الحسنى:

"ومع ذلك (أى مع ما أصابه من الأمراض المؤلمة) كان يدرس بنفسه النفسية أيضًا، ويصنف ويفتى ويعظ، ومواعظه كانت مقصورة على حقائق التنزيل فى كل أسبوع يوم الثلاثاء.

وكان فى أواخر عمره لا يقدر على أن يجلس فى مجلس ساعة فيمشى بين مدرستيه القديمة والجديدة ويشتغل عليه خلق كثير فى ذلك الوقت فيدرس ويفتى ويرشد الناس إلى طريق الحق وكذلك يمشى بين العصر والمغرب ويذهب إلى الشارع الذى بين المدرسة وبين الجامع الكبير فيتهادى بين الرجال يمينًا وشمالاً، ويترقب الناس قدومه فى الطريق ويستفيدون منه فى حل مشكلاتهم.

وكان الناس يتساقطون على منهل علمه وأدبه ومورد فضله وكرمه من كل جانب، فقد كان الأدباء والشعراء يأتونه ليتلقوا من أدبه الرفيع ومادته الغزيرة والعلماء يقصدونه ليستفيدوا منه العلوم والمعانى، وأصحاب المعرفة والسلوك يفدون عليه ليقتبسوا من ضوء معرفته ونور باطنه الذى يضفى عليهم ألوانًا من القداسة والجمال، ويفتح لهم آفاقًا من العلم والإحسان، ويثير فيهم جذوة الإيمان الخالص واليقين الصادق كما كان المرضى وذوو الحاجة يلجأون إليه فى أمور دنياهم ويطلبون منه ما يعينهم

فى الضعف والفقر فيواسيهم ويصلح بالهم. ولم يكن هناك أحد من الناس يرجع من عنده منكسر القلب، حزين النفس - بدون أن يتفضل عليه بشيء من علمه أو ماله أو كرمه وسخائه.

ولندع المؤرخ يتحدث عن هذه الناحية المهمة بأسلوبه القوى يقول:

"وكان الناس يقصدونه ليستفيدوا منه ومن علمه والأدباء ليأخذوا من أدبه - ويعرضوا عليه أشعارهم ، والمحاويج يأتونه ليشفع لهم عند أرباب الدنيا ويواسيهم بما يمكنه، والمرضى يلوذون به لمداواتهم، وأهل الجذب والسلوك يأتونه ليقتبسوا من أشعة أنواره، وغرباء الديار من أهل العلم والصلاح ينزلهم ويحسن مثواهم ويسعى فى قضاء أغراضهم ونيل مطالبهم، وإذا جالسه منحرف الأخلاق أو من له فى المسائل الدينية بعد شقاق جاء من سحر بيانه بما يؤلف بين الماء والنار، ويجمع بين الضب والنون، فلا يفارقه إلا وهو عنه راض.

إن رجلا هذا شأنه يستحق بكل جدارة أن يحتل منزلة عليا من العلم والإيمان وهو قمين بأن يكون أسرة لكل من يريد أن يجمع بين خيرى الدين والدنيا ويرغب العيش فى سعادة الحياة ورخاء البال وطمأنينة القلب.

كانت له يد طولى فى العلوم والفنون، وفى علم الحديث والقرآن بصفة خاصة، وقد بحث عن حقائقها ونزل إلى أغوارهما

فجاء بمعان عميقة، ومباحث عالية لم يسبق لها مثيل، وألف كتابًا فى ثورة الهند الماضية، ولم يبق منها إلا مجلدان من الأول والآخر.

قال الشيخ محسن بن يحيى الترهُى فى كتابه "اليانع الجنى" "إنه قد بلغ من الكمال والشهرة بحيث ترى الناس فى مدن أقطار الهند يفتخرون باعتزائهم إليه، بل بانسلاكهم فى سمط من ينتمى إلى أصحابه"، وقال أيضًا: "ومنها (أى من سجاياه الفاضلة الجميلة التى لا يدانيه فيها عامة أهل زمانه) فراسته التى أقدره الله بها على تأويل الرؤيا فكان لا يعبر شيئًا إلا جاءت كما أخبر به كأنه قد رآها، وهذا لا يكون إلا لأصحاب النفوس الزاكيات المطهرة عن أدناس الشهوات الرديئة وأوجاسها، وكم له من خصال محمودة وفضائل مشهودة.

وجملة القول فيه أن الله تبارك وتعالى قد جمع فيه صنوف الفضل وشتاته التى فرقها بين أبناء عصره فى أرضه ما لو رآه الشاعر الذى يقول:

ولم أر أمثال الرجال تفاوتا
لدى المجد حتى عد ألف بواحد

استبان له مثل ضوء النهار أنه وإن كان عنده أنه قد بالغ فيه فإنه قد قصر، فكيف الظن بأمثالى أن يحسن عد مفاخره التى هى

أكثر من حصى الحصباء، ومن نجوم السماء".

عكف الشيخ عبد العزيز بجميع مواهبه التى رزقه الله إياها، وبكل طاقته على إصلاح النزعات الفاسدة، وتثقيف العقول الزائغة وتقريب القلوب إلى الله سبحانه وتعالى.

وقد أثمر عكوفه هذا فنشأت فى هذه البلاد طائفة من العلماء الربانيين الذين يرجع الفضل فى علومهم وبلوغهم إلى منزلة الكمال والمعرفة إلى الشيخ عبد العزيز، ولم يكتف الشيخ بتهيئة الغذاء العلمى والأدبى لأبناء الهند، وإنما خلف وراءه، جماعة ممن ارتووا من منهل علمه واستقوا من ينبوعه الروحى الثر.

مضى الشيخ عبد العزيز إلى رحمة الله سنة ١٢٣٩هـ بعدما عاش ثمانين سنة، يشحن القلوب بمعرفة الله ويصلح النفوس، ويقربها إلى الله، ويغذى الناس بغذاء دسم من العلم والدين ويعالج القلوب المريضة ويداويها بأنجع العلاج وأنفعه.

وأفاض على المجتمع الإسلامى الهندى سجالا من نفثاته الروحية ونفحاته القدسية، مما كان له أكبر الأثر وأعمقه فى تيقظ الشعب المسلم فى الهند والعودة إلى مكانته من العز والكرامة، وقد دانت به الهند الإسلامية فى عهده، ولا تزال تدين بتراثه العلمى والروحى.

وتعد شخصيته غرة فى جبين التاريخ ومفخرة على صفحاته الناصعة.

(١٣)
ساعة مع الشيخ إسماعيل الشهيد
١١٩٣هـ - ١٢٤٦هـ

إسماعيل الشهيد، ذلك الرجل الكبير الذى نبغ فى أسرة علمية ممتازة بدهلى ووصل إلى قمة السيادة العلمية، والقيادة الدينية، ولم يتجاوز سنه سن التلاميذ فى المدارس الثانوية. إسماعيل الشهيد، ذلك الثائر الذى أشعل جذوة الإيمان فى مجتمع كاد يذوب فى مجتمعات لا صلة لها بالإسلام وينضوى إلى راية الشرك والإلحاد، ولكن إسماعيل الثائر جاء فى هذه الساعة الحرجة وأمسك العنان، عنان الأمة الإسلامية فى بلاد الهند، فأنقذها من الشقاء والضلال والغواية، وأرشدها إلى السعادة والرخاء والهداية.

ظهر الإمام إسماعيل الشهيد فى حين يشبه فترة الغفلة والركود فى الأمة، فقد كانت لتقاليد البدع صولة على العقول، ولأساليب الشرك جولة فى النفوس، وكان المجتمع الإسلامى الهندى يفقد كل صلاحيته للبقاء، ويحرم جدارته بالحياة، وكان الوضع سيئا إلى حد يبعث على القلق والأسى، ويشعل فى النفوس الأبية غيرة الإيمان وشعلة الجهاد.

أنجبت أسرة شيخ الإسلام ولى الله بن عبد الرحيم الدهلوى هذا الإمام العبقرى والعالم الفذ، والعارف الكبير، فى نهاية القرن الثامن عشر الميلادى فقد كان الإمام إسماعيل الشهيد حفيده، وتلميذه وتلميذ ولده الشيخ عبد العزيز الدهلوى، وقد وضع الله فيه من فراسة الإيمان ورسوخ العقيدة والتصلب فى الدين ما يندر فى جماعة العلماء وطبقة الاتقياء كما رزقه الله تعالى من فهم الدين وعلم الباطن حظًا أوفر، استطاع به أن يميز الحبيث من الطيب ويفرق بين الحق والباطل، وبين السنة والبدعة.

وفى سبيل خدمة الدين الصحيح ومحو البدع والضلالات وتويج السنة فى أوساط الشعب وأهل العلم ورفع كلمة الله عالية ورايته، خفاقة بذل جل حياته وكل جهوده وإمكاناته وقواه، وفى الأخير رفه راية الجهاد ضد أعداء الإسلام لتمكين دين الله فى أرضه وإعلاء كلمته فى خلقه، فأبلى فى ذلك بلاء حسنًا حتى سقط دونه شهيداً وقتل فى ساحة "بالاكوت" بعيداً عن وطنه وأهله غريبًا بين وهاد الجبال وهضابها.

درس الشيخ إسماعيل الشهيد حياة المسلمين فى عصره فوجدها - فى أغلب الأحوال - لا تمت إلى تعاليم الإسلام بسبب ولا تتصل بالحياة الإسلامية فى شىء، وإنما هى الخرافات والمبتدعات والضلالات قد دخلت فى صميم المجتمع وأخذت

منه كل مأخذ حتى أن بيت الشيخ نفسه لم يوق من بعض التقاليد والعادات غير الإسلامية، فقام بدوره يمحوها وينبه الأسرة إلى ما تحمله من إثم وضلال، وقام بصفة عامة ينبه الجماهير إلى ذلك ويأخذها على ذلك أخذًا شديدًا، ويبين للناس خطأهم وضلالهم الذى تربوا فيه، وتشربوه كعادة دينية لها قيمتها وأهميتها.

واتصل فى هذا السبيل بكل طبقة مهما كانت منحطة سافلة ولم يبال بعزة ومنصبه الذى كان يحتله ووعظ الناس بما كان له نفوذ أى نفوذ فى القلوب، وزجرهم بما أدركوا به الحقيقة وعلموا أن الحياة التى كانوا يعيشونها لم تكن مما يطلبه الإسلام من متبعيه، وخاض الحياة العامة فدرسها عن كثب واطلع على ما كان الناس ينفقون عليه مواهبهم وكفاءاتهم ويركزون عليه جهودهم وتفكيرهم، فنال كل ذلك مما يخالف عقائد الإسلام الساسية وتعاليم الرسول الحقة، وأوامر الله العظيمة وشمر لإصلاح هذا الوضع المحزن عن ساق الجد وقام يدعو الناس إلى دين صحيح وعقيدة صحيحة فأثمرت جهوده وجاءت بنتائج سارة وكاد يقلب الوضع تمامًا لولا بعض عباد الدنيا وضلال الطريق عاقوا دون النجاح وأضلوا الناس بأباطيلهم وحرضوهم على المخالفة والمجاهرة بالباطل.

ولكنه لم يحفل بكل ذلك، ولم يكترث بأى مؤامرة حيكت

ضده، أو دسيسة دبرت لاغتياله فى الظلام، بل ويقى يجاهد فى الله حق جهاده، واستمر يكافح لرفع شأن الدين وتمكين عزه فى النفوس، محتملا فى ذلك كل بلاء ولو عظيم، صابراً على كل محنة ولو اشتدت، معرضًا عن أى تهديد أو مخالفة كأنه يتمثل بلسان حاله بيت خبيب رضى الله عنه، ويقول مخاطبًا أعداءه القاعدين بالمرصاد:

ولست أبالى حين أقتل مسلمًا

على أى جنب كان فى الله مصرعى

ومن غريب ما يحكى فى ذلك أنه ذات مرة رأى موكبًا من الفتيات السافرات يتوجه إلى مكان فسأل الناس عن خبر الموكب فلما علم أن المومسات يجتمعن فى دار سيدتهن للحضور فى برامج اللهو، وعندما علم أنهن مسلمات لم يصبر على هذا السفور والوقاحة وقال: إن الله تعالى يحاسبنا يوم القيامة إذا مالم نبلغ إليهن كلمة الإسلام ولم ننهن علة سوء فعلتهن، وماذا سيكون جوابنا. وقال: غننى والله أذهب إلى تلك الدار التى يجتمعن فيها فمنعه بعض أصدقائه وقالوا إن ذلك يسبب لك سوء السمعة والاتهام فأجابهم قائلا: لا يبالى بذلك إسماعيل وحدث فى نفسه لنفسه: لو خفت اننى أقتل فى هذا السبيل واقطع إربًا إربًا فهل أمتنع عن هذا، وكان الجواب: كلا.

ولما أقبل الليل تنكر الشيخ إسماعيل بشكله وملابسه، وصار

كأنه بعض الدراويش إلى البا وقرعه وكانت المومسات مشغولات باللهو والمزاح واللذات وعندما سمعن قرع الباب ونداء الشيخ سألن عن القارع، فأجابهن إننى دوريش جئت لأسمعكن ندائى، وأعرض عليكن أعمالى البهلوانية، وفتحن الباب ودخل الشيخ وسأل عن كبرى المومسات وكانت تشتغل ببعض الفتيان فوق الغرفة، ووصل إليها الشيخ وصادف لهواً ومراحًا ومنكرات من الأمور، وقد عرفته بعضهن وجلسن حوله بكل هدوء واحترام وسألن عن سبب القدوم.

وهنالك بدأ الشيخ وعظه بحكمة وأفاض فى الحديث إلى أن كان تأثيره أقوى وأعمق وما هى إلا دقائق إذ انطلقت أصوات البكاء والجهش وساد الجو نوع من الخوف والوجل وانقلب الوضع ودخلت كل واحدة منهن فى حظيرة الإيمان من جديد وبكين على حياتهن السالفة وتبين إلى الله واستغفرنه أشد الاستغفار وبايعين الشيخ، وحينما قال الشيخ إسماعيل فى الأخير: "التائب من الذنب كمن لا ذنب له" تزوجت الفتيات من ساعتهن وعشن عيشًا هادئًا سعيداً أما العجائز فقد اتخذن لأنفسهن بعض المهن والحرف وسيلة للمعاش.

وهكذا أيده الله بنصر من عنده فلم يضعف ولم ييأس وإنما ازداد قوة وحماسة وتوسع مجال دعوته حينًا بعد حين ودخل الناس فى حظيرة إرشاده فساعدوه فى نشر رسالته وسعوا فى تحقيق

غرضه، وأراد الله به خيراً ولدعوته وأعماله خلوداً فقيض له شيخًا من أعاظم الشيوخ فى عصره، وأجل العارفين فى زمنه وساقه إليه ليقتبس من نوره الإيمانى ما يقوى به إيمانه ويشحن نفسه بإخلاص أكثر وعاطفة التفانى فى ذات الله أشد وأقوى.

ومن سنة الله فى عباده المخلصين أن يتعارفوا فيما بينهم كى يتعاونوا فى العمل لإصلاح الفساد وبسط العدل وتنبيه الناس إلى ما يعود عليهم من واجبات ومسئوليات نحو دين الله وتبليغ رسالته، وهنالك ألقى الله فى روع الشيخ إسماعيل الشهيد أن يبحث له عن شيخ كامل يستند إليه فى أموره ويستعين به فى حاجاته ويستوحى منه روحًا جديدة وقوة جديدة تكون له عونًا فى عمل الدعوة وعضداً فى معترك الحياة.

وصل الشيخ إسماعيل إلى الشيخ السيد أحمد بن عرفان الشهيد[1] فبايعه على الكفاح والجهاد فى سبيل الله ولازمه ملازمة التلميذ أستاذه حتى صقلت مواهبه وجلت كفاءاته واشتعلت فى قلبه جمرة التفانى فى حب الله وخدمة دينه مما جعله لا يهدأ ولا يطمئن وإنما هو قلق يساوره ليل نهار ونار يلتهب أوراها فى كل حين وآن فاشتغل بتبليغ رسالة الإسلام وإصلاح الوضاع وتربية النفوس بقوة وحماسة بالغتين وتعدى نفه إلى كل طبقات الأمة وقل معارضوه وانتقصت العداوة. وسرت فى المجتمع الإسلامى

---

[1] سيكون الحديث القادم عن هذا الشيخ - بإذن الله.

روح فياضة كان مصدرها الشيخ إسماعيل والشيخ أحمد بن عرفان الشهيدين.

وبعد اتصاله بالشيخ أحمد بقليل من الزمان أتاح الله له السفر إلى الحجاز للحج ولم يكن هذا السفر إلا رحلة دعوية أذاع عنها فى الناس وبعث الشيخ عبد الحى والشيخ إسماعيل الشهيد ليؤذنا فى الناس بالحج ويحرضاهم على الانضمام إلى قافلة الشيخ أحمد، واحتشد عدد ضخم ممن حرضوا على مرافقة الشيخ فى مثل هذه الرحلة المباركة[٢].

وقد كان هذا السفر نواة أولى لحركة الجهاد التى قادها الشيخ أحمد والشيخ إسماعيل الشهيدان، فى القارة الهندية الكبيرة ضد الطغاة والمجرمين. وكان الشيخ إسماعيل أول جندى متحمس خاض فى معركة الحق، وحرب التحرير، تحرير النفس من عبادة غير الله، وإنقاذ المجتمع من تأثير الالهة الباطلة ونفوذ الوثنية والشرك فحارب القوى الباطلة وشن حملته على النزعات الفاسدة والميول الزائغة التى فشت فى المجتمع الإسلامى وقتذاك وتجول فى مدن هذه البلاد التى كانت ترزح تحت سيطرة الخرافات والعقائد الباطلة، وفتح فيها باب الحق والهدى على مصراعيه ودعا الناس ليدخلوا آمنين مطمئنين، وكان ذلك فتحًا جديداً فى تاريخ الهند الإسلامى وانتصاراً للدعوة الإسلامية فى

---

[٢] اقرأ بعض تفاصيل هذه الرحلة فى الحديث القادم.

القرن الثالث عشر.

وحدثت ضجة فى أوساط المبتدعين من العلماء والشيوخ الذين كانوا يخدعون ضعاف العقول من الجماهير المسلمة وبسطاءهم وبدأوا يطلقون صيحات وصرخات ضد الشيخ محمد إسماعيل ويطعنونه فى دينه وعقيدته ويرمونه بالإلحاد والزندقة وأرادوا أن يخمدوا جذوة الإيمان التى تشتعل فى نفس الشيخ إسماعيل ويصرفوا عنايته من خدمة الدين إلى الاشتغال بالمخاصمات والنزاعات. ولكن إسماعيل الشهيد لم يلق إلى كل ذلك بالا، ولم يعره ذرة من الاهتمام، إنه لم يفكر فيما يقوله الناس ويتهمونه وإنما ركز جل تفكيره وكل عنايته على تحقيق مهمته من تبليغ الدين وإعلاء كلمة الله وإصلاح الفساد وتقويم العقائد وإعادة الإيمان واليقين إلى القلوب، وكل ذلك فى ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

وكان من عادته أن يلقى كلمة الوعظ والإرشاد فى حفل من الناس فى الجامع الكبير بدهلى يومى الجمعة والثلاثاء يحضره الناس أفواجًا كما كانت طبقة من المثقفين والعلماء الذين لم يكن الشيخ إسماعيل يقع منهم موقع الإعجاب وكانوا يعارضونه فى كفاحه الدينى تحضر أيضًا لتنتهز الفرصة إذا ما سنحت لتضليل الرأى العام وإهانة الشيخ، ولكنها لم تنجح فى خطتها أبدًا، واستمر يشحن النفوس بتأثيره العميق ويشعل القلوب

بنفثاته القوية، ونفحاته الزاكية كما كان يشتغل بالتدريب على الفنون الحربية والتمرين على شدائد الحرب والتعود على الصعوبات التى يواجهها الجنود فى فترة الحرب وقد تحمل فى ذلك كل شدة من الفاقة والجوع، والعطش والسهر والتعب وما إلى ذلك.

ولما انقشع سحاب الابتداع والإشراك إلى أكبر حد، ومج الناس عامة العقائد الباطلة وكرهوا التقاليد الفاسدة التى كانوا عاضين عليها بالنواجذ، واستقر الوضع وعاد كل شيء إلى نصابه بدأ الشيخ إسماعيل يحثهم على الجهاد فى سبيل الله بحكمه ومواعظه، فكانت تحتوى مواعظه فى أغلب الأحوال على معانى الجهاد وفضله والمرابطة فى سبيل الله. وتكررت هذه المعانى فى كلامه حتى نزلت إلى أعماق النفوس وأخذت منها كل مأخذ وانبعثت فى القلوب عواطف القتال فى الله ودوافع الفداء والموت فى سبيله إلى أن تمنى كل رجل أن يقاتل فى الله فيقتل ويقتل تحت لواء محمد عليه الصلاة والسلام ويدخل فى رحاب الشهداء والصديقين عند الله.

وعندما نضج دافع الجهاد فى القلوب، وعيل صبرها فى القتال لنيل الشهادة ذهب إلى مرشده الشيخ أحمد بن عرفان على دعوته منه وأبدى استعداده للجهاد واتفقا على التوجه نحو الجهات المويوءة من بشاور وبنجاب والسنده إلى صحارى أفغانستان

وبلوجستان وخرجا بجماعة من المجاهدين الذين كانوا يريدون أن يمثلوا دور الصحابة والتابعين فى القتال مع أعداء الإسلام والمسلمين ويجعلوا التاريخ الإسلامى الأول يعيد نفسه. وكلما مرا على قرية يدعوان الناس إلى الجهاد والشهادة فى سبيل الحق حتى اجتمع جيش كثيف ووصلا إلى بشاور حيث أقاما مع المجاهدين وجعلاها مركزاً لدعوة الجهاد يدعوان منها القبائل للثورة على الحكومة البنجابية والجهاد فى سبيل الحرية والحق فلبت دعوتهما ووعدت بالمسير معهما حيثما ذهبا، والقتال مع العدو حينما أمرا.

وقد نالت القبائل وأهل البنجاب بغيتهم فى هؤلاء المجاهدين وكانوا ينتظرون بطلا يقودهم للثورة ويسوقهم للجهاد ضد الوضع الحاضر والحكم الحالى، ووقعت الحرب بين المسلمين وأعدائهم وكان الشيخ إسماعيل قائدهم العام فلم يعتم الأعداء أن فروا وهربوا هالكين ومدحورين وقامت دولة إسلامية صغيرة فى بنجاب كانت "بشاور" عاصمتها لكن الحرب لم تنته بعد، وإنما هى فئة من المسلمين تقاتل الأعداء فى وداى "بالاكوت" وجماعة أخرى تقوم بأمور الدولة من إقامة العدل وتنفيذ قوانين الإسلام بين الناس.

وتكاد جماعة المجاهدين تستولى على رقعة كبيرة على البنجاب كلها وبعض المقاطعات الأخرى أيضًا ولكن وقع من

الأمر مالم يكن يرجى فقد شق على بعض العناصر والقبائل قيام حكومة إسلامية شرعية فغدروا بالمسلمين وانضموا إلى راية الكفرة والطغاة والمجرمين وأخبروهم بجميع ما كانوا يعرفونه من أسرار المجاهدين وفسحوا لهم المجال حتى جمعوا عدة كبيرة وعدداً ضخماً وأحاطوا بالمجاهدين فى وادى "بالاكوت" من كل جانب ووقعت المعركة الحاسمة الأخيرة بدت فيها شجاعة المجاهدين الأبرار وظهرت فيها حماسة الشيخ إسماعيل الشهيد الذى قاد الجيش الإسلامى فى ساحة الحرب وكان من أعلم القواد بفنون الحرب وأعظمهم بسالة فقاتل العدو قتالا مريراً حتى قتل أخيراً، وتحققت أمنية شهادته فى سبيل الحق وبذلك دخل فى رحاب الشهداء الخالدين الذين قال الله عنهم: ﴿ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون﴾.

ذهب الشيخ إسماعيل الشهيد إلى جوار رحمة الله وفاز بدرجة الشهداء والصديقين فى الآخرة وخلف فى التاريخ الإسلامى الحافل ذكراً رفيعًا، وأسوة القتال والجهاد فى سبيل الحق والحرية والعدالة تبقى خالدة للأجيال والأمم التى تريد بناء صرح المجد والعز والكرامة فى الأرض.

* * *

(١٤)
ساعة مع الشيخ الإمام المجاهد الشهيد
أحمد بن عرفان
١٢٠١ هـ ـ ١٢٤٦هـ

(أ)

كان القرن الثالث عشر الهجرى، أحرج فترة وأدقها فى تاريخ الإسلام والمسلمين فى الهند، عندما كان سلطان المسلمين السياسى يلفظ نفسه الأخير، وكاد يأفل نجمهم الذى تألق فى هذه الديار إلى ألف عام تباعًا، ووجدت التقاليد السيئة والمحدثات من الأمور مرتعًا خصبًا فى المجتمع الإسلامى، وبسط الشرك نفوذه فى قلوب الناس، وعادت الجاهلية إلى رؤوسهم فباضت وفرخت، فلم يبق فرق بين الحلال والحرام، ولم تعد لشعائر الإسلام قيمة، وأصبحت العقيدة الإسلامية عبارة عن عبادة القبور وزيارة الضرائح.

لقد كان الوضع سيئًا إلى حد كبير، وتكاد تندرس معالم الإسلام فى الهند، وينجرف الشعب المسلم فى سبيل الشرك والضلال؛ ولولا جهود بعض العلماء الكبار وأولى الغيرة من رجال العلم والفضل لم تقم فى وجه هذا السيل الجارف قائمة،

وهى جهود لا ينساها تاريخ المسلمين فى هذه البلاد، ولا يتجاهل عنها المسلمون فى أى حال من الأحوال.

فى مثل هذه الظروف القاتمة والأحوال المظلمة قام رجل من رجال العلم والصلاح، رجل أعزل من كل سلاح مادى؛ لكنه متسلح بسلاح الإيمان الذى لا سلاح فوقه، وخاض وسط الأمواج المتلاطمة فى خضم الشرك والنفاق والبدع والمنكرات فقلب الوضع السيئ، وشحن القلوب بحرارة الإيمان، وأشعل النفوس بعاطفة الثورة على الأوضاع، وألهب الطباع الجامدة بشعلة الجهاد، وبدل الأرض غير الأرض.

إنه الإمام السيد أحمد بن عرفان الشهيد الذى نهض بحركة تجديد الدين برفقة الشيخ إسماعيل الشهيد، وذلك فى حين كانت البنجاب كلها تحت حكم "السيخ" وكان الإنجليز يحكمون فى الهند، يبطلون شعائر الإسلام، ويثيرون على الإسلام شبهات، ويتبعون سياسة توزيع الشعب المسلم فى فرق شتى، وجماعات متناحرة ليفنى كيانهم الشخصى بدون إثارة حروب طاحنة ومعارك دامية.

هذا، وكان المسلمون يجتازون مرحلة دقيقة فى حياتهم، فقد فشا فيهم الإفلاس الدينى، والفقر الخلقى فشواً لم ينته إلى حد، وأصاب المجتمع الإسلامى داء عضال تكاد تكون فيه نهايته، انتشر الفسق والفجور والمعاصى حتى صار جزءًا من المجتمع

الكبير، فكان الناس يتسابقون فى ارتكاب المعاصى، ويتبجحون بالوثنية التى التصقت وأحاطت بهم من كل جانب، ولم يبق بيت من بيوت المسلمين إلا وعم فيه استعمال الخمر والمسكرات جهارًا، فأدى ذلك إلى تفسخ خلقى عظيم، وظهر كل ما لم يكن يرجى من شعب مسلم يؤمن بكلمة الإسلام والقرآن، وتجرد المسلمون من خصائص الأمم الحية والشعوب الفاتحة بتاتًا، وانتشرت المومسات فى المجتمع بصورة عامة، فكان الناس - الأغنياء منهم والفقراء على السواء - لا يرون بأسًا فى الزنى والحرام، كأنهم سكارى، خالعون ملابس الاحتشام والزينة، عراة أمام الملأ بدون حياء ولا غيرة، كل مشتغل باقتراف المعاصى والجرائم الخلقية، لا يهمه دين ولا خلق، وإنما الحياة كلها هزل ولهو، والعيش عيش البهائم والأنعام التى لا هم لها إلا إشباع شهوة البطن والفرج، لقد بلغ المسلمون فى انحطاطهم الدينى والخلقى إلى حد جلب لهم شقاء طويلا، لا يزالون يذوقون مرارته إلى الآن.

أما من الناحية السياسية فقد انحط فيها المسلمون وبلغ بهم الضعف إلى اضطراب الرأى، وانهيار الأعصاب، وفقدان الثقة بالنفس، فلم تعد لهم ذاتية الحكم والسياسة التى كانوا ينفردون فيها عن غيرهم، ولم يبق لهم قائد ولا زعيم يجمعهم تحت راية من العز والسيادة ويدعوهم إلى الاعتزاز بالدين والافتخار بنعمة

الإيمان والعلم التى يتمتعون بها، وثارت عشرات من الفتن بين جماعة المسلمين الضعفاء، فعاشوا أذلاء يحكمهم "المرهتة" من دهلى إلى دكن، و "السيخ" من البنجاب إلى ثغور أفغانستان، والإنجليز على الحدود الساحلية وكلهم عرفوا بعدائهم السافر للإسلام والمسلمين، ومحاولاتهم الكريهة لتشويه وجه التاريخ.

إن هذه الأوضاع السيئة لم تكن تسمح للتاريخ الإسلامى أن يمتد ويزدهر، بل كادت تقضى عليه وتسد فى وجهه الطريق، ولكن الحكمة الإلهية شاءت بقاء الإسلام فى ديار الهند وازدهار العقيدة الإسلامية فى ربوعها، فقيض الله الإمام السيد أحمد بن عرفان الشهيد لهذه المهمة وفتح هذه البلاد روحيًا.

وقام السيد أحمد الشهيد بحركة إسلامية كبرى فى القرن الثالث عشر الهجرى، وهى حركة أصيلة تعمقت جذورها إلى الأعماق، فازدهرت ونالت قبولا وإعجابًا، وأحيت القلوب الميتة بتأثيرها القوى، كما أيقظت النفوس الجامدة بواقعها الحى وحقيقتها العظيمة.

وجاءت هذه الحركة فى أوانها، إذ لو تأخرت قليلا لكانت الدعوة الإسلامية فى هذه الديار قد أصيبت بشلل لم يمكنها من القيام مرة أخرى، ولم تجد لها من الأنصار والأعوان من يسيرونها. وظهرت هذه الحركة فى حين نالت لها فيه من جماعة المسلمين أنصاراً يؤازرون فى تقديمها إلى الأمام ويتفانون فى

تحقيق الغاية التى قامت لأجلها.

ولم تكن هذه الحركة محدودة النطاق، بل كانت أول حركة ثورية قامت ضد الجرائم الخلقية والاستعمارية على مبدأ تأسيس الحكم الإسلامى والخلافة الإسلامية فى الأرض. وكانت محاولة عملية لإقامة دولة الإسلام بعد قرون طويلة.

ولكى نفهم هذه الحركة جيداً، ونطلع على غايتها التى توخاها السيد أحمد الشهيد وراءها؛ يجب أن ندرس حياته ونعرف شخصيته، والجو الذى عاش فيه.

ولد السيد أحمد بن عرفان الشهيد فى صفر سنة ١٢٠١هـ فى قرية من قرى رأى بريلى تعرف الآن باسم "تكية"، وينتمى نسبه إلى سيدنا الإمام الحسن بن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنهما، وقد هاجر جده الأعلى السيد قطب الدين محمد الحسنى من غزنة إلى الهند، برفقة من أصحابه واتباعه سنة ٦٠٧هـ أيام السلطان قطب الدين أيبك والسلطان شمس الدين الألتمش، فنال حفاوة بالغة من السلطانين اللذين أكرماه وجماعته غاية الإكرام.

ولما استقر به العيش فى دهلى توجه إلى شرقى الهند تحقيقًا للغاية التى هجر الوطن من أجلها، ووصل إلى قرية "كرا" من أعمال "إله آباد" وقد كانت عاصمة حكومة مستقلة آنذاك، فحمل عليها وفتحها وما والاها من المدن والقرى، ثم ضمها إلى الدولة

الإسلامية واستوطنها كرمز لجهاده وانتصاره الباهر الذى أحرزه.

وعندما بلغ السيد أحمد الشهيد الرابعة من عمره دخل الكتاب وتعلم العلوم الابتدائية، وأقبل على الألعاب الرياضية يتمرن فيها على الطعان والجلاد، ولما بلغ أشده نشأ فيه دافع خدمة الخلق وإعانتهم، فكان يدخل على الضعفاء والفقراء ويسألهم عن حوائجهم ليسدها، وله فى ذلك حكايات غريبة، تثير الاستغراب والدهش.

وقد سبق فى شغفه بالعبادة والذكر والنوافل كثيراً من النساك والمتعبدين - وهو فى هذه السن - فكان يحيى الليالى فى النوافل والذكر، ويقضى النهار فى خدمة الناس وتلاوة القرآن والدعاء والمناجاة مع الله، ويتلو القرآن بتدبير ودراسة عميقة.

أرادت الحكمة الإلهية أن ينشا السيد أحمد الشهيد جنديًا محاربًا فى جبهة الإسلام مجاهداً فى سبيل الله، فهيأ له وسائل المران على الجندية، والفنون العسكرية لأن الجهاد لا يحتاج إلى عواطف القلب فقط بل وحاجته إلى قوة اليد، والمعرفة بفنون الحرب لا تقل عن الأولى، فكان من عادة السيد اليومية أن يشتغل بالرياضة الجسمية ساعات، يتمرن فيها على طرق متعددة من الرياضات، كالرماية، والمصارعة، وحمل الأثقال، والجرى والسباحة، وما إلى ذلك.

وهكذا كان دأبه كل يوم يملأ نفسه حماسة وشجاعة، ويشحن

جسمه قوة ونشاطًا، وكان يشعر بميل شديد نحو الجهاد وحنين غريب إلى الإسهام فيه بأسرع ما يكون، وذات مرة نشب صراع بين المسلمين والهنادك فى قرية مجاورة لرأى بريلى، فقام يستأذن أمه للجهاد والقتال تحت راية الإسلام، فأذنت له بذلك، ولكنه ما إن وصل إلى تلك القرية حتى انتهت الحرب.

ولما شب السيد أحمد الشهيد وجد نفسه وحيداً بين أسرته، وقد توفى والده من قبل، فاضطر بحكم الظروف إلى أن يفكر فى سبيل المعاش ليهيئ له بذلك كفاف العيش، وقوت الأسرة، وسافر برفقة جماعة من أقربائه إلى لكهنؤ عله يجد هناك شغلا أو وظيفة يسد بها الحاجة ويدفع الأذى عن نفسه وعن أسرته، وتجشم فى هذا السبيل من المشاق ما الله به عليم، وظهرت على يديه فى هذا السفر من الخوارق والكرامات ما يؤكد بلوغه إلى أعلى درجة من صفاء الروح وزكاة النفس، وينبئ بإعراضه عن الدنيا وزخارفها والإقبال على الآخرة بقلب سليم.

وساقه القدر فى هذه الرحلة إلى دهلى، حيث أسرة الشيخ ولى الله الدهلوى التى كانت منارة نور فى الظلام، ومرجع العلماء، ومركز العلوم والمعارف، يقصده العلماء والطلبة من أنحاء البلاد ومن الخارج، فوصل الإمام السيد أحمد الشهيد إلى الشيخ عبد العزيز بن ولى الله الدهلوى، فلما علم به الشيخ عبد العزيز أنه من أسرة علماء السادة فى رأى بريلى ـ وكانت الوشائج

العلمية تربطهم بأسرة الشيخ ولى الله ـ أقبل على السيد أحمد ـ واحتفى به وبالغ فى إكرامه. وبدأ السيد يستفيد من الشيخ عبد العزيز وشقيقه الشيخ عبد القادر، وأخيراً بايع السيد أحمد الشيخ عبد العزيز، واكتسب العلوم الروحانية والنفحات القدسية، وقام بمجاهدات ورياضات استطاع بها فى مدة قليلة أن يحرز مكانة عالية فى العلوم الباطنية والروحانية.

ومما يرويه التاريخ أن الشيخ عبد العزيز علمه مصطلح "تصور الشيخ" ضمن تعليمه مراحل السلوك الأخرى، فأبى ذلك السيد وقال: إننى أشم فى ذلك رائحة الشرك، ولكن الشيخ عبد العزيز أنكر عليه ذلك، غير أن السيد أصر على موقفه ولم يقتنع "بتصور الشيخ" فى حال ما، وقال: إذا قدم لى الشيخ سنداً لهذا المصطلح من الكتاب والسنة وإجماع الأمة ساغ لى أن أقبله وأعمل به، وما أن سمع ذلك الشيخ عبد العزيز من كلام السيد أحمد حتى احتضنه وقبله من شدة الفرح، وبشره بولاية الأنبياء فسأله السيد أحمد شرح هذه الولاية ومفهومها، وهنالك انبسط الشيخ للكلام وقال:

"إن الولاية المطلقة هى أن يخص الله عبداً من عباده بقربه، وعلامة هذا القرب أن يخالط حب الله ورسوله بشاشة قلبه وأعماق نفسه، بشكل لا يرى فى الدنيا وزخارفها ما يسر قلبه وتبتهج به نفسه، ويمحو حب الأهل والأولاد والمنصب والمال

عن قلبه، فيطلب قرب الله ورضاه على الدوام ويشتغل بهذا الطلب إلى حد يرميه الناس بالجنون.

وقد سأل رجل من تبع التابعين سفيان الثورى عن نسبة إيمان التبع إزاء إيمان الصحابة فقال: لو كنت تراهم لظننتهم مجانين، ولو أنهم رأوك حسبوك منافقًا وكافرًا، ولما رأوا فيك ما يبرر رد سلامك منهم، وهكذا فإن صاحب الولاية ينهمك فى المجاهدات من الصيام والصلوات وكثرة النوافل وخدمة الخلق، ولا يتعرض للجاهلين والفاسقين، عاملا بالاية ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُم الجَّاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا﴾ وأحب شىء لديه العزلة، والعمل بإشارة النص، وتأويل القرآن أو مصطلح الصوفية، ويسمى هذا العمل "بقرب النوافل".

أما ولاية الأنبياء فإن حب الله يرسخ فى قلب صاحبها وينزل إلى أعماقه، حتى إنه يحب افيثار والتضحية الذى تشير إليه الآية ﴿لن تَنَالوا البِّرَ حَتى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّون﴾ وأخلاق الأنبياء الذين قال الله عنهم: ﴿وَإِنَّهُم عِندَنَا لَمِن المُصْطَفِين الأَخيَار﴾ وفسر أخلاقهم بقوله: ﴿وَلَكِن البِّرَّ مَن آمَنَ بِاللهِ وَاليومِ الآخِرِ وَالمَلائِكَةِ وَالكِتَابِ وَالنَّبِيينَ، وَآتَى المَالَ عَلى حُبِّه ذَوِى القُربَى وَاليَتَامَى وَالمَسَاكِين وَابْنَ السَبِيلِ وَالسَائِلِينَ وَفِى الرِّقَاب، وَأَقَامَ الصَلاةَ وَآتَى الزَكَاةَ ، وَالمُوفُونَ بَعَهْدِهِم إِذَا عَاهَدوا، وَالصَابِرين فِى البَأسَاء وَالضرَاءِ وَحِينَ البَأس، أُولئِكَ الذينَ صَدَقُوا، وَأُولئِكَ هُم المُتقُون﴾.

كل ذلك يتمثل فى صورته وسيرته، ويقضى على جميع الرذائل

والشرور الظاهرة منها والباطنة، وهو الذى يشتغل بهداية الخلق وإصلاح الفساق والمجرمين وإقامة حدود الله وفرائضه وإحياء سنن الأنبياء والمرسلين، والجهاد لأعداء الله والمسلمين، وتأديب الأشرار والمذنبين، ويعيش فى هم خدمة الإسلام فلا يقصر عن الوعظ والإرشاد فى محافل المسلمين ومجالسهم ولو لم يقبل الناس على كلامه، ويسمى هذا الطريق فى مصطلح الصوفية "بقرب الفرائض"، ويعمل أصحابها بعبارة النص وتنزيل القرآن فى أغلب الأحوال وهذه المنزلة هى أعلى منازل الولاية ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيم﴾.

وبقى السيد أحمد يشتغل بالمجاهدات ويتعلم العلوم الظاهرة والباطنة، ويقضى جل وقته فى صحبة المفسرين والمحدثين والفقهاء من علماء هذه الأسرة، التى كانت تجمع فيها فى وقت واحد أئمة العلماء وأجلة الفقهاء - وهى أسرة شيخ الإسلام ولى الله الدهلوى - وانتهز السيد فرصة وجوده بين هذه الأسرة العلمية فدرس القرآن بتدبر عميق وفقه بالغ.

وفى مدة قليلة بلغ السيد أحمد درجة عليا من الإحسان، واجتاز مراحل السلوك الوعرة بسرعة وسهولة، ولقى من الله تقربًا ومعرفة قلما يوجد له نظير فى تاريخ العلماء الربانيين والعارفين.

وعاد السيد إلى وطنه "رأى بريلى" وأقام فيه نحو عامين، ولكن لم ترق له الإقامة فى الوطن، وسافر إلى دهلى مرة أخرى،

فقوبل بحفاوة بالغة وقبول عظيم، وأقبل عليه الخلق للاستفادة والمبايعة غير أنه لم يرض بذلك كل الرضى، ووجد فى نفسه حنينًا نحو الجهاد، فزار نواب أمير خان "حاكم ولاية تونك فى الأخير" وقد كانت بينه وبين الإنجليز وبعض الأقيال معارك فى أواسط الهند فأبدى له استعداده للجهاد ضدهم وتربية الجيش فأقام فى جيش أمير خان أكثر من ست سنين، يربى الجيش ويدربه على الجهاد والقتال، ويشير على الأمير بتدابير الحرب ومصالح القتال، وكاد يقضى على حكم الإنجليز ويطردهم من البلاد؛ إذ حدث ما يبعث الحزن ويثير الشجون، ووقعت بين أمير خان والإنجليز مصالحة بالرغم من تحذير السيد أحمد، وفى النهاية تم احتلال الإنجليز للولاية وسيطرتهم على الحكم.

قام السيد فى هذه الفترة التى قضاها فى الجيش برياضات وتمرينات روحية وجسمية، إذ كان يقضى نهاره فى تربية الجيش وتدريب العسكر والاستعداد للقتال، وليله فى العبادة والإنابة حتى كانت تتورم قدماه، ولكنه لم يكن يبالى بذلك شيئًا، ولم يكن يتغافل عن هدفه وغايته لمحة واحدة.

ورجع السيد إلى دهلى تاركًا أمير خان وجيشه، وبالغًا من الولاية والروحانية منزلة عليا، محرزًا الآداب الإلهية والنفحات القدسية. وصار وجوده فى دهلى الآن بمثابة مركز عظيم يأوى إليه الناس، ويلتفون حوله لاكتساب قبسة من علومه ومعارفه، وقد

حضره هذه المرة الشيخ إسماعيل الشهيد والشيخ عبد الحى وطلبا منه المبايعة، فبايعهما ولازماه مدة من الزمان، وبخاصة الشيخ إسماعيل الشهيد فإنه لم يفارقه حتى آخر لحظة من حياته، وقد توثقت بينهما محبة خالصة مصدرها الإيمان، ومنبعها الحب الإلهى، فقاما فى سبيل إعلاء كلمة الله، واستنفدا كل جهودهما وإمكانيتهما ولولا بعض المبكيات المحزنات التى وقعت فى الأخير لكانت راية الإسلام خفاقة فى هذه البلاد، وارتفع فيها مناره عليًا للأبد.

* * *

(ب)

ورجع السيد إلى وطنه متجولا فى مدن كثيرة، ومتفقدًا أحوال الناس وأوضاع المسلمين فيها، وقد ترك تأثيرًا عميقًا فى كل مدينة أو قرية أقام فيها لعدة أيام، إذ كان إقبال الناس عليه متزايدًا، يثير الاستغراب ويبعث الأمل، وانتهز هذه الفرصة السانحة لتوجيه الناس إلى تعاليم الدين وتنفيرهم من المبتدعات والوثنية التى وقرت فى نفوسهم، وتكاد تحل محل شعارهم الدينى.

لقد مر الإمام السيد أحمد الشهيد وهو فى طريقه إلى الوطن على مدينة سهارنفور، ومظفر نكر، وديوبند، ونانوتة، وكاندهلة، ورام فور، وبريلى، وشاهجها نفور إلى غير ذلك من المدن والقرى، فكأن مطرًا نزل من السماء بعد طول الانتظار وبعد المزار، واستبشر الناس بالخصب والرخاء بعد الجدب والبلاء، والتفوا حوله كأنهم كانوا منه على ميعاد، فأخذهم السيد بالتوجيه والإرشاد، ودعاهم إلى ترك البدع التى التصقت بهم، ونبذ آلهة القبور والمنكرات التى استولت عليهم، فكان لدعوته تأثير أى تأثير، غصت المساجد المقفرة بالمصلين، وارتجت الأجواء بكلام الله والرسول، وعلت الوجوه نضرة الإيمان،

والقلوب بشاشة الحب، وأعقب هذا الخصب الروحى الخصب المادى أيضًا فكل قرية زارها السيد تضاعف الإنتاج فيها، وتزايدت حاصلات الثمار والنبات والحبوب، وأخذت الأرض زخرفها وازينت، وغشيها من بركاته ما أدهش الناس.

يتحدث العلامة عبد الحى صاحب "نزهة الخواطر" رواية عن الشيخ محمد حسين - أحد أتباع السيد وشيوخ سهارنفور - يقول:

"كل مكان خطا إليه السيد أحمد ازدهر من نفحاته الروحية ونفثاته القدسية، وقد توجه السيد أحمد إلى قرية للمسلمين فمر فى طريقه على قرية لحديثى العهد بالإسلام الذين طلبوا منه أن يمكث لديهم ساعة، وقبل السيد دعوتهم فأقام عندهم، ولم تسمح له الظروف أن يزور قرية المسلمين فكان من اثر ذلك أن قرية حديثى العهد بالإسلام التى أقام فيها الشيخ لا تزال مزدهرة، مخصبة، أما قرية المسلمين التى لم يزرها فهى مقفرة موحشة إلى الآن".

أقام السيد فى وطنه وحثّه الآن دافع الجهاد على التمرين على الفنون الحربية والاستعداد له أكثر مما مضى، وذلك بدون أن يقصر فى مجاهداته الروحية وعباداته، وقد كان شغفه بالجهاد منذ صغره ولكن تزايد هذا الشغف واشتد أواره الآن، وكاد لا يصبر على البقاء فى الوطن حينما سمع بقصة اضطهاد مسلمى

"بنجاب" وعلم أن "السيخ" ينالونهم بالأذى والظلم وهتك الحرمات، ولا يتركونهم ليعيشوا فى وطنهم سالمين آمنين.

قد أقلقت هذه الفكرة السيد أحمد الشهيد، وصارت منه كجزء لا يفارقه، فكانت تتمثل أمامه فى كل حين ساحة الجهاد وتتراءى له المعارك الحاسمة، يرى فيها صورة معارك الإسلام فى بدر وحنين، وما كان يستقيظ وينام إلا على ذكرها والتفكير فيها، وكلما رأى رجلا قويا وشابا نشيطًا يقوله: "هذا ممن نريده لعملنا".

ويحكى أن أربعة شباب من إحدى القرى جاءوا لزيارته ـ وقد كان كل منهم قويا نشيطا ـ فلما رآهم فرح بهم كثيراً وقال: إن حاجتنا إلى مثل هؤلاء الشباب أكثر من حاجتنا إلى الشيوخ وأثرت كلمة السيد فى قلوبهم، فقالوا نحن رجال فقراء لا نستحق منكم هذا المدح، فأجابهم السيد قائلا: إن الله تعالى اختاركم لعمله.

ويروى التاريخ أن الله تعالى قبلهم، فاستشهد ثلاثة منهم فى أول حملة وقعت على "أكوره" وبقى واحد منهم ملازمًا للسيد يخدمه ويخدم رجاله فى الحل والترحال.

ولما اشتد اشتغال السيد أحمد بالتدريب على فنون الحرب والتمرين على أساليبها، واستغرق ذلك جل وقته، إلى أن وقع نقص فى أمور العبادة والسلوك، وكثرت فى الناس قالة، وتحدثوا

فيما بينهم بذلك، واستقر رأيهم على أن يتحدث مع الشيخ واحد منهم ويبين لهم ما يخطر ببالهم، وما يلاحظونه من النقص وقلة النشاط فى العبادة والسلوك، فلما سمع السيد كلام الناس قال:

"نحن الآن فى وجه عمل أفضل من السلوك، وأجد قلبى مشغولا بذلك، وهو الاستعداد للجهاد فى سبيل الله، والجهاد لا يعادله شيء مما تريدونه وتطلبونه، فإن ذلك يعنى اكتساب علم السلوك وهو تابع لهذا العمل الجليل، وإذا كان هناك رجل يصوم النهار ويقوم الليل إلى أن تتورم قدماه، ورجل آخر يطلق البندقية ويتعلم فنون الحرب كى يقوم فى وجه الكفار ويحاربهم فى سبيل الله، فلا شك أن الثانى أفضل من الأول، ولا يستطيع الأول أن يبلغ منزلة الثانى، إذ يتقدم هذا العمل عمل السلوك، وأما ما نلمسه منذ أسبوعين من لذة غريبة وحلاوة فى الصلاة والعبادة فذلك من أثر هذا العمل الجليل فقط".

تركت كلمة السيد فى قلوب الناس أثرًا عميقا ورأوا الخير كل الخير فيما يأمر به السيد ويريده، فاطمأنت قلوبهم، ورضيت نفوسهم، وعلموا أن الإعداد للجهاد وقتال أعداء الله - لنشر دينه وتعاليم دعوته - واجب الساعة ونداء الوقت. ورأى السيد أن الطريق ممهد للجهاد، وأن المجاهدين مستعدون للإجابة، ولكن الله ألقى فى روعه أن يزور الحرمين قبل أن يخوض المعركة، فيحج ويستمد من بركاتهما روحًا جديدة وقوة ونشاطا، ويدعو

الله تعالى وهو فى بيته للتوفيق والنجاح، ساورته هذه الفكرة وأقلقت باله، وعلم أن ذلك من الله، وأنه يدعوه إلى بيته فيجب أن يسرع فى تلبية هذه الدعوة.

لقد ألهم الله السيد أحمد الشهيد بالحج والزيارة فى عصر كان الناس قد نسوا الحج ووقعوا منه، فى غفلة، وفى عصر لم يكن السفر إلى الحج ميسورا، لأن أخطار الطريق تحول دون ذلك، فلم تكن الطرق آمنة، ولم يكن هناك من السفن الضخمة والبواخر العظيمة مثل ما نشاهد اليوم، بل وأنواع من المشكلات وصنوف من المشاق لم تكن تسمح للناس أن يغامروا بأنفسهم، وكانت تعوق دون أمنيتهم هذه المباركة خطوة تلو خطوة.

ولكن السيد أحمد الشهيد حدا به الشوق إلى الحج، والحنين إلى زيارة الرسول عليه الصلاة والسلام، فأعلن فى الناس أنه يريد الحج فمن رأى أن يرافقه فى هذا السفر فليفعل، وأتاح الله له هذه الفرصة التى كانت خطوة أولى للجهاد ومقدمة لتحمل المشاق والأذى فى ساحة الحرب، إذ أن هذا السفر كان جهاداً بنفسه وتمهيداً لما سيلاقونه فى المستقبل.

وانتشر نبأ الحج بسرعة مدهشة فى طول البلاد وعرضها، ولم تكد تمضى عدة أيام إذ بدأت وفود الحجيج تأتى إليه، وتنهال الرسائل من كل جانب تسأل عن موعد الحج وتستأذن لأصحابها المرافقة فى السفر، حتى احتشد عدد كبير يرافق السيد فى سفره

الميمون، وقد تحققت الأمنية والتهبت شعلة الحب والشوق، ولم يصبر الناس على البقاء فى ديارهم لمحة واحدة، وكلٌ سعيد بهذه الرحلة وكلٌ مغتبط بهذه الصحبة.

وفى غرة شوال سنة ١٢٣٨هـ بعد ما صلى السيد صلاة العيد مع الجماعة والوفد أعلن بداية رحلته الميمونة، خرج بأربع مائة نفر، تاركا أهله وقريته (تكية راى بريلى) إلى مكة والمدينة، حيث يستمد من الله قوة وروحًا، ويشحن نفسه بإيمان أقوى ونشاط أوفر.

ولكن هل وصل السيد أحمد الشهيد رأسًا من الهند إلى الحجاز - كما هو المعروف اليوم - أو كانت له وقفات ومحطات كثيرة استغرقت مدة طويلة؟ يجب أن نطلع على هذه الرحلة الميمونة التى تعد بحق من أعظم الرحلات وأجداها فى سبيل نشر الدعوة، وتستحق الخلود فى كل عصر ومصر، وتجدر بأن تكون أسوة حسنة للدعاة ونموذجًا مثاليًا للمسلمين فى كل مكان.

توجه السيد أحمد الشهيد من قريته إلى "دلمئو" التى تبعد عنها نحو ١٨ ميلا حيث نهر "كنكا" وذلك كى يواصل منها سفره عن طريق السفن، فلما وصل إلى "دلمئو" وجد جماعة من الناس ينتظرون قدومه، فانتهز فرصة التبليغ، وأقام فيها مع جماعته عدة أيام يدعو الناس إلى التوحيد والإيمان ونبذ التقاليد والعادات السيئة والمبتدعات، فكان لكلامه تأثير عميق فى

النفوس، حتى دخل الناس ـ رجالا ونساء ـ فى حظيرة الإيمان من جديد، وتمكنوا من معرفة أوامر الدين وتعاليم الكتاب والسنة، ومما قال فى إحدى خطبه التى ألقاها أمام جمع حاشد من الناس فى هذه القرية:

إخوتى: أرجو الله تعالى أن يوفقنى فى هذه الرحلة إلى نشر دعوته وهداية آلاف من عباده عن طريقى، وتوبة آلاف منهم من الفسق والفجور، والشرك والبدع، والاطلاع على شعائر الدين، واعتناق التوحيد، وقبول أوامر الله.

لقد دعوت الله تعالى لأهل الهند أن يفتح لهم طريق الحرمين، ويوفقهم لزيارتها، فقد مات والله كثير من الأثرياء والأغنياء غير موفقين للحج، وذلك لأن الشيطان استحوذ عليهم وقال لهم إن الطريق ملىء بأخطار ومخاوف لا تدع الإنسان أن يصل إلى بلاد الحرمين، فافتح يا إلهى طريقك لكل من ينوى الحج، ويسر له هذه الرحلة، وقد استجاب الله دعوتى، وألهمنى أنه يفتح الطريق بعد رجوعى، فمن عاش بعدى سيرى كيف يتحقق وعد الله".

وقد تحقق وعد الله، وكان وعده مفعولا، فرأينا أن الطريق آمن منذ ذلك الوقت، ولا يزال يزداد يسراً وسهولة إلى الآن.

ولم يزل السيد ينتقل من قرية إلى قرية ومن مدينة إلى مدينة أخرى وهو فى طريقه إلى البلاد المقدسة، يحل ويرحل، ويقيم ويسافر ويبلغ الناس دعوته، ويعلمهم دين الله وسنة الرسول هو

وصاحباه: مولانا محمد إسماعيل الشهيد، ومولانا عبد الحى، وقد طالت إقامتهم فى بعض المدن قرابة أسبوعين، وانتهزوا كل لمحة لتبليغ الدين ونشر دعوة الله.

مر هؤلاء الأئمة، وقادة الدعوة الإسلامية إلى آباد، وينارس، وعظيم آباد، وبها كلبور، ومرشد آباد، إلى أن وصلوا إلى "كلكته" بعد ما قضوا فى كل محطة وقتًا يعلمون الناس دينهم ويبلغونهم أوامر الله، ويربون النفوس السعيدة، ومن كل مكان حصل لهم عدد زيادة على العدد الذى خرجوا به.

أقام السيد مع جماعته ثلاثة أشهر فى كلكته، ووفقه الله فى هذه المدة اليسيرة لإنجاز عمل جليل يكاد يستحيل فى مدة طويلة، إذ نجح فى إرشاد عدد ضخم من الناس إلى طريق الدين الصحيح، وتمكن من إنقاذ آلاف الرجال من ربقة الوثنية والشرك والمبتدعات وهدايتهم إلى التوحيد الخالص والإيمان الراسخ، فكم من رجال تابوا من المحرمات والمنكرات ومن الخمر والميسر، وكم منهم من أغلقوا حوانيت الخمر، ونبذوا أوانى الذهب والفضة،، وطلبوا من الحكومة توقيف كل عمل يخالف تعاليم الإسلام، واستقال كثير من المسلمين من مناصب حكومية هامة كانوا يشغلونها احتجاجًا منهم.

ويروى لنا التاريخ أن عدد التائبين والمبايعين كل يوم بلغ إلى ألف نفس، كما أن عدد من كانوا يعتنقون الإسلام كل يوم

بلغ من عشرة إلى خمسة عشر رجلا، فكان السيد أحمد الشهيد وصاحباه ـ مولانا محمد إسماعيل الشهيد والشيخ عبد الحى ـ كلهم منهمكين فى تبليغ الدين، منتهزين الفرص لتبليغ دعوتهم، حتى لم تبق لهم فرصة للاستراحة، ولا للمحة واحدة.

ومن الطريف أن حوانيت الخمر أقفرت طوال هذه المدة، حتى اضطر أصحابها إلى رفع الشكوى إلى الحكام، وقالوا: إنه منذ قدوم هذه الجماعة إلى المدينة لا يدخل رجل واحد الحوانيت، ولم يبق من يشترى منا الخمر أو يشربها، وقد جر ذلك إلى خسارة عظيمة فادحة فى تجارتنا، فطمأنهم الحكام بأن قالوا: "إن هذه الجماعة سوف تغادر المدينة إلى مدينة أخرى، وسنجرى البحث والتفتيش عن خسارتكم فإذا كان الأمر حقا خففنا فى الضريبة".

ومكث السيد وجماعته فى كلكته ثلاثة أشهر، قام خلالها بعمل فى الهداية والإرشاد لم يكن يخطر على بال، وكان له سلطان على القلوب والأرواح، وقامت له دولة أقوى من دولة الإنجليز المادية، إذ أتاح الله له فرصًا للإصلاح والإرشاد، وتزايد عليه إقبال الجمهور بطريق أثار استغراب الجميع، ودعاهم إلى أن يفكروا فيما كان يحمله السيد من عواطف نبيلة ودوافع قوية نحو خدمة الدين الإسلامى وتطهير القلوب والنفوس.

وتحققت "نبوءة" السيد أحمد الشهيد التى أبداها فى إحدى

خطبه وقال: "إننى أرجو الله أن يوفقنى فى هذه الرحلة إلى نشر دعوته وهداية آلاف من عباده عن طريقى وتوبة آلاف منهم عن الفسق والمعاصى والشرك والبدع، والاطلاع على شعائر الدين، واعتناق التوحيد، وقبول أوامر الله".

وغادر السيد أحمد الشهيد "كلكتا" إلى الحجاز عن طريق البحر، وودعه إلى الساحل خلق كبير لا يحصيهم إلا الله، وقد خلف وراءه تأثيراً عميقًا لدعوته وإصلاحه وبدت على يديه من البركات والكرامات واللذات الروحية مالا يدركه إلا من صحبه فى هذا السفر أو رآه عن كثب.

وصادف مروره على موانئ كثيرة يقيم فيها أيامًا ويؤدى واجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بكل حرية وانشراح صدر، وعندما وصل إلى "مينا مخا" رأى الرجال والنساء كلهم يغتسلون عراة بدون أى احتشام وبكل وقاحة وتلك عادة عرفوها وتوارثوها جيلا بعد جيل، واستنكر السيد هذه الوقاحة أشد الاستنكار، واتصل بقاضى تلك المدينة وحاكمها ليتحدث معهما حول هذا الموضوع، وحذرهما من مصير هذا المنكر الشائع، فاعتذروا للسيد وقالا: إن أهل هذه المدينة تعودوا هذا الطريق فى الاغتسال، وهم لا يرون فيه بأسًا، غير أننا نصدر تعليمات تمنع الناس عن هذه العادة طوال إقامتكم، ومكث السيد فيه شهراً حتى توقف هذا التقليد السيء بنفسه، ولم يعد الناس لمثله بعد خروج

السيد أيضا.

ودخل السيد وجماعته ميناء جدة فى شعبان سنة ١٢٣٧هـ وسعد بدخول الحرم يوم ٢٨ شعبان، وحينما رأوا الكعبة بيت الله الحرام لم يملكوا أنفسهم، وبكوا على نيل هذه السعادة التى لا تعادلها سعادة، وشكروا الله على هذه النعمة، وطوفوا وسعوا، وخرجوا من الإحرام، وهنأ بعضهم بعضًا، وقضى المطوفون والخدم كلهم عجبًا مما رأوه فى هذه القافلة من البركة وسيما القبول، حتى قالوا: إننا لم نر فى حياتنا مثل هذه الجماعة المباركة التى حلت اليوم.

وأهل هلال رمضان، فاستبشرت الجماعة خيراً، وقضوا رمضان فى بلد الله الحرام فى العبادة والإنابة والذكر والتلاوة واعتكفوا فى الحرم فى العشر الأواخر من رمضان، وحضر الحج فحجوا حجًا مبروراً.

ولم يكتف السيد الشهيد بأداء مناسك الحج ـ ولو كان ذلك أعظم سعادة وأضخم فخرا ـ ولكنه قام بواجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى الحجاز أيضا، وأضاء قلوب أهلها بنور ذلك الإيمان الذى كان يحمله، وحضره كبار علماء الحجاز ليبايعوه على الإخلاص والإيمان، منهم: الشيخ محمد عمر مفتى مكة المكرمة، والسيد عقيل، والسيد حمزة، والشيخ مصطفى إمام المصلى الحنفى، والشيخ شمس الدين المصرى الواعظ ببيت الله

الحرام، والشيخ محمد علي الهندى المدرس بمكة المكرمة، والشيخ عمر بن عبد الرسول المحدث، والشيخ بخارى المدرس بالمدينة المنورة، والخواجة الماس، وقد كان من كبار أولياء الله فى المسجد النبوى.

ونهل العالم الإسلامى كله بهذه المناسبة من منهل السيد أحمد الشهيد إذ أن بركاته لم تنحصر فى الحجاز، وإنما تعدت إلى العالم الإسلامى كله بحكم كون الحجاز مركز العالم الإسلامى ومورده، وخاصة فى موسم الحج.

وبعدما زار السيد المدنية وزار سيد المرسلين محمداً ﷺ، وقضى وقتًا لا بأس به فى مسجد الرسول، واستوحى منه إيمانًا جديداً وقوة جديدة؛ استأذن ربه فى الرجوع إلى الوطن لكى يقضى حاجة فى نفسه كانت تراوده فى كل حين، فارتحل إلى الهند فى ٢٩ ربيع الأول ١٢٣٨هـ من المدينة المنورة إلى مكة المكرمة حيث قضى رمضان، وودعها فى غرة ذى القعدة، وصادف وصوله إلى الوطن يوم ٢٩ شعبان ١٢٣٩ بعد ثلاث سنين إلا شهراً.

* * *

(ج)

وقد آن للسيد أحمد الشهيد أن يحقق أمنية الجهاد التى راودته منذ نعومة أظفاره، وينقذ المسلمين من براثن الذئاب الضوارى فيخرجهم من شريعة الغابات إلى شريعة النور والعدالة والمساواة. وقد تفطن السيد أحمد بفراسته وإيمانه إلى أن الظروف القاسية والأوضاع السيئة التى يعيش فيها مسلمو الهند ـ ولا سيما مسلمى بنجاب ـ لا ينقشع سحابها بدون أن تكون لهم سيطرة مستقلة وكلمة نافذة. إنه رأى أن الإسلام فى هذه البلاد يعانى ضعفًا ويجتاز فترة اضمحلال شديد، ولو لم يقم لإسعافه أولو الغيرة والإيمان من المسلمين لكان للهند آخر عهد بالإسلام، وعادت إليها الجاهلية الأولى، وساد عليها جو من الكفر والنفاق، وارتمت البلاد فى أحضان الشرك ووقعت فى شرك آلهة شتى، شأنها فى عهد الظلام والهمجية والكفر.

رأى الإمام أحمد الشهيد بأم عينيه أن موجة الشرك والجهل والإلحاد تطغى على الأمة الإسلامية فى الهند وفى العالم الإسلامى أجمع، وشاهد البدع والخرفات تغزو عقول المسلمين، وغربة الإسلام والعلماء لا تزال تتفاقم، وتزيد الفجوة بين الحياة والإيمان، وبين العلم والعمل، إنه رأى أن الدين تداس حرمته، وشعائر الإسلام تنتهك كرامتها، وأن الانحطاط يتسرب إلى ديار

الإسلام وحصونه، رأى الإمام أحمد الشهيد كل ذلك، وعلم حقًا أن دواء هذا الداء ليس فى الوعظ والإرشاد فحسب، وأن مجالس الدرس وتزكية الباطن لا تغير فى الوضع شيئًا، وإنما كان يعتقد أجزم الاعتقاد ويؤمن أقوى الإيمان بأن الإسلام والمسلمين فى حاجة إلى القوة، تلك القوة التى تنبع من الإيمان القوى والعزم الأكيد، وذلك لكى يمكن دفع التيار بالتيار ورد السيل بالسيل.

لقد كان يرى أن التشريع الإسلامى بما فيه من حدود وقوانين لا ينفذ فى الحياة العملية إلا بالحكومة والنظام الشرعى وأن المسلمين لا يستطيعون أن ينعشوا من ضعفهم وينهضوا إلى مصاف الأمم، ويثبتوا تفوق النظام الإسلامى وفضله على سائر النظم والمبادئ بدون أن تكون القوة والسيطرة بأيديهم، وبذلك سيتغلب الإسلام ويبسط سلطانه ونفوذه فى كل مكان ويتمكن المسلمون من العمل بالإسلام وجميع تعاليمه، فإن العمل بجزء كبير من الكتاب والسنة يتوقف على أن تكون للإسلام دولة مستقلة تقوم على أساس الشريعة والدين الحنيف، كما يتحدث بذلك أحد كتابه فى ساحة الجهاد، وهو يترجم أفكار السيد أحمد الشهيد، فيقول:

"إن بقاء الدين بالدولة، وإن الأحكام الدينية والقوانين التى لها علاقة بالدولة لا يمكن العمل بها إذا لم تكن للإسلام دولة،

وإن المسلمين لا يذوقون الذل والنكبة على أيدى الكفار وإن شعائر الدين لا تداس كرامتها، و إن المساجد لا تهدم وتخرب، إلا لكون الإسلام فى هذه الديار ليست له دولة مستقلة".

علم القراء - فيما أسلفنا - أن السيد أحمد الشهيد كان دائم الاستعداد للجهاد، يبعث فى الناس روح الحماس الدينى والقتال ضد أعداء الله، وكان شديد الاهتمام بتأسيس دولة إسلامية لتكون كلمة الله هى العليا، وترتفع راية الدين خفاقة عالية، وتعود إلى المسلمين الثقة بشخصيتهم، والاعتماد على قوتهم، ولما رأى السيد أن "السيخ" يستعبدون المسلمين ويصبون عليهم من الظلم والقسوة والعذاب ما يفتت القلوب ويفلق الأكباد؛ عزم على الخروج فى سبيل الله دون أن ينتظر الفرصة الأخرى، وعين البنجاب مركزاً للجهاد للأسباب التالية:

١. الانتصار لمسلمى البنجاب كان فريضة شرعية فى ذلك الحين على جميع مسلمى الهند، والإهمال فى ذلك يسبب لهم خسارة فادحة فى النفس والمال.
٢. انتهاك حرمة الإسلام وشعائر الدين.
٣. وجود القبائل المحاربة الحرة.
٤. قرب الشعوب والدول الإسلامية الحرة المستقلة.

لم يكن الإمام أحمد الشهيد يتوخى من هذا الجهاد ولم يكن يطلب من ورائه إلا دعم أساس الدين وتوطيد دعامة الإسلام فى

هذه الديار.قد كان يتمنى أن يرى المسلمين مبيضى الوجوه فيها، وتقر عينه بالحياة الإسلامية العزيزة بأن تعود إلى المسلمين كرامتهم وإلى الدين حرمته، وتنهزم القوى الباطلة التى تألبت على الإسلام ورجاله، وتجمعت لشن الغارة عليهم، إنه أراد أن يقضى على الجبهة المعادية ويثور على مراكز الكفر والفتنة والنفاق، فلا تقوم لها قائمة وتكون نهايتها على يده، حتى يرى الإسلام عزيزًا ومنتصرًا والكفر مغلوبًا ومنهزمًا.

إن أعظم غاية استهدفها السيد أحمد فى جهاده إنما هى الانتصار لدين الله وإعلاء كلمته ونشر سنة النبى محمد ﷺ، وجلب رضى الله تعالى. يقول فى إحدى رسائله التى وجهها إلى بعض نواحى البنجاب:

"لا يخفى على أصحاب العدل والهداية أن قتال أهل الكفر والضلال إذا كان أساسه استجلاب المال والعز والجاه، والتبوء على منصب الحكم والسيادة فلا عبرة به عند الله تعالى. أما إذا كان لنصرة الدين وإعلاء كلمة الله، ونشر سنة النبى ﷺ؛ فهو ما يسمى فى مصطلح الشريعة باسم "الجهاد" وهو أفضل من جميع العبادات وأكملها، ولا تعادله عبادة فى رفع الدرجات، وتكفير السيئات كما تشير إليه الآية الكريمة ﴿فَضَّلَ اللهُ المُجَاهِدِين عَلَى القَاعِدِين أَجْرًا عَظِيمًا، دَرَجَات مِنه وَمَغْفِرَة وَرَحْمة﴾ ولذلك فيجب أن تؤدى هذه الفريضة بما يتفق وقانون الشريعة الغراء، كى تكون

وسيلة للنجاة فى الآخرة ومبعث الرحمة الإلهية والنصرة السماوية فى الدنيا".

وهذه رسالة أخرى وجهها إلى علماء الهند وشيوخها وأمرائها، يوضح فيها وجهة نظره إلى الجهاد والغاية التى يهدف إليها فى القتال مع أعداء الله، يقول:

"لقد وفق الله تعال هذا العاجز سابقًا لأن يدعو الناس إلى اتباع الشريعة والأمر بالمعروف، ليل نهار وكما يعرفه الكثير من زملائنا، ثم أنعم الله سبحانه وتعالى بأن يدخلنى فى زمرة المهاجرين الصادقين برفقة عدد من عباده المؤمنين المخلصين، وأشكر الله جل وعلا على هذه النعمة شكرًا عظيمًا، وبما أن الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف لا يكتملان بدون الجهاد والقتال فى ساحة الحرب، أمر الله سبحانه إمام الهداة وسيد الدعاة محمدًا ﷺ فى الأخير بقتال الكفار، فظهر دين الله وشريعته على سائر الأديان والشرائع، وعلى ذلك ألهمنى الله تعالى بأداء هذه العبادة والحصول على هذه السعادة، بأن عزمت على تحقيق هذه المأثرة، باذلا كل شىء من الأنفس والأرواح والأموال والأهل والوطن فى سبيل هذا العمل العظيم، وكل ذلك إرضاء لله تعالى وإرغامًا للكفار والمشركين، لا يشوبه شىء من هوى النفس ووساوس الشيطان، وأصرح من جديد فأقول: إن الله علام الغيوب شهيد على أن "دافع الجهاد" الذى يعيش فى نفسى

ويقلقنى ليس إلا لوجه الله تعالى وإعلاء كلمته، دون أن يخطر على بالى شىء من الجاه والعز والسيادة والحكم، والمال والصيت، والفضيلة على الناس والمعاصرين أو نوع من الأمانى الكاذبة والأحلام الضائعة والله على ما نقول وكيل".

وجاء ضمن رسالة أخرى:

"لله المنة والفضل أنه هدانا إلى طاعته وألهمنا بإرضائه"

فقد أطبقنا العين والأذن عن غير الله، وصرفنا العين عن الدنيا وما فيها، وما حملنا راية الجهاد إلا ابتغاء وجه الله ورضاه، وقد تخطينا حدود حب العز والجاه والمنصب والسيادة والحكم، وتعدينا هذه الأمانى الكاذبة، إننا لا نريد إلا الله وحده، ولو كنا عاجزين ضعفاء ولكننا، نحب الله تعالى حبًا لا يساويه شىء، ونستغنى عن كل حب لا يتصل بالله، إننا لا نريد حرب الولاة المسلمين، وإنما نحارب الكفرة الألداء فقط".

ويقول فى رسالة وهو يتحدث عن غاية جهاده ونيته فى ذلك:

"إن الله علام الغيوب شاهد على أنه لم يخطر ببالى أبدًا وفى أى حال من الأحوال أن أمتلك قناطير مقنطرة من الذهب والفضة، وأحكم البلاد، ويكون لى منصب عريض آمر وأنهى، أو أهدر كرامة السلاطين والملوك الأجلة، فأتبوأ عرش السيادة والحكومة.

إن التاج والعرش لا يعادلان حبة شعير فى عينى، ولم أفكر قط

فى مملكة كسرى وقيصر، وإنما تراودنى أمنية واحدة فقط، وهى أن تعم كلمة الله وحكم الإسلام فى كل بقعة من بقاع العالم، وذلك مانعبر عنه بشريعة الله، فلا يكون فيها صراع ولا خصام.

وأتمنى على الله أن يتم هذا العمل إما على يدى أو على أى يد أخرى، أما أنا فسأستخدم كل وسيلة توصلنى إلى هذا الغرض".

ويتحدث عن الوضع الذى كان سائداً فى بلاد الهند فى ذلك الحين، ويبدى الألم الذى كان يعيش فيه والحزن الشديد الذى كان يستولى عليه، فيقول فى رسالة وجهها إلى بعض الأعيان.

"من مصادفات القدر أن الهند ترزح تحت نير الاستعمار المسيحى والهندوكى منذ عدة أعوام، فقد استولى هذا الاستعمار على معظم البلاد مضطهداً ظالمًا، وقامت تقاليد الكفر والشرك على قدم وساق، وأصبحت شعائر الإسلام وتعاليمه مغلوبة، وذلك ما أثار فى نفسى قلقًا وحزنًا، وبعث فيها دافع الهجرة واشعل فى قلبى شعلة الجهاد".

إن هذه المقتطفات التى أوردناها وسردنا ذكرها تلقى ضوءًا لامعًا على ما كان يريده السيد أحمد الشهيد وينويه من جهاده الذى أزمع عليه وحمل رايته فى طول البلاد وعرضها، ولو تأملنا قليلا بدا لنا أن حركة الجهاد التى أسسها الإمام أحمد كانت النواة الأولى للدولة الإسلامية الصحيحة التى كانت حاجة الأمة

الإسلامية فى ذلك العصر ولا تزال، ولو كتب لها النجاح والازدهار، لكان العالم الإسلامى اليوم من أقصاه إلى أقصاه قوة عظيمة ويداً واحدة وكان المسلمون أسرة واحدة قوية لا تقوم فى وجهها أعظم قوة، وأضخم دولة فى العالم.

أسلفنا أن الإمام السيد أحمد الشهيد كان يحث أتباعه على الاستعداد للجهاد وقتال أعداء الله قبل أن يسافر للحج، فكان الناس يقضون جل أوقاتهم فى التمرينات الحربية والتدريب عليها، ولكنه بعد ما رجع من الحج بدأ يبذل كل جهوده فى الإعداد للقتال، ويبعث الشيخ محمد إسماعيل الشهيد ومولانا عبد الحى إلى النواحى ليبلغا الناس دعوة القتال ويبعثاهم على الهجرة والجهاد، كما جاء فى "سوانح أحمدى" سيرة أحمد الشهيد:

"بعث وفد مؤلف من الشيخ محمد إسماعيل الشهيد ومولانا عبد الحى وغيرهما من العلماء إلى انحاء البلاد؛ ليتحدث فى الناس حول موضوع الجهاد وفضائل القتال ضد أعداء الله، وكانت زاوية السيد أحمد الشهيد فى ذلك الحين عامرة برجال يعكفون على تعلم الفنون الحربية والمران على الجلاد والطعان والرماية والطراد، بدلا من المراقبة والرياضة والمجاهدة فلم يبق رجل فى زاويته إلا وهو جندى يحمل السيف والبندقية والرماح، عوضًا عن السبحة والعمامة، فكان من رأى أصحاب السيد أحمد

جماعة من الصوفية ويراهم الان جنوداً يقضى من عجبه.

ولما استهلت سنة ١٢٤١هـ ودع السيد أحمد الشهيد أهله ووطنه مهاجراً فى سبيل الله بجمع حاشد من المجاهدين وسافر إلى "تونك" بدعوة من الأمير ميرخان حاكم تلك المقاطعة، الذى سعد بخدمة الإمام أحمد الشهيد وجماعته، وجهزهم بكثير من الأسلحة والحوائج، وهكذا أسهم فى الجهاد ووفق إلى الجمع بين خيرى الدنيا والآخرة.

ولكى نقدر اهتمام السيد أحمد الشهيد بالقتال فى سبيل الله وحماسه المنقطع النظير فى الجهاد، ونقدر صبر المجاهدين، واحتمالهم الشدائد والمكاره، وحنينهم إلى لقاء العدو والشهادة يجب أن ننظر إلى خريطة الهند والبنجاب وأفغانستان، ونتصور تلك الصحارى القاحلة والجبال الوعرة والرمال الواسعة، والممرات المخيفة، والغابات المرعبة، والأنهار العريضة التى اجتازها هؤلاء المجاهدون وصادفوها فى سفرهم، ومما لا شك فيه أن مواصلة السفر وحدها فى هذه العقبات إنما كانت جهاداً بنفسه.

ولم تنته عراقيل المجاهدين بهذه المخاوف فقط، بل صادفوا مشكلات ومحناً كثيرة من فقدان الماء، وخطر قطاع الطرق، وقلة الطعام، ومواجهة الشعوب واللغات المختلفة، وأنواع من المحاذر والمخاوف والأخطار مما يكفى شىء واحد منه لتثبيط

المجاهدين وزعزعة عقيدتهم وهمتهم ولكن الأخطار والمحن زادتهم رغبة إلى الجهاد، وشوقًا إلى القتال، وحنينًا إلى الشهادة، وذلك إن دل على شيء فيدل على إخلاص القائد، وصدق نيته.

مرت قافلة المجاهدين فى طريقها إلى مركز القتال "بيشاور" بمدن كثيرة تقيم وترحل وتدعو الناس إلى الجهاد، وقد كان من تأثير هذا القائد الجليل وروحه القدسية أن أقبل عليه الناس واحتشدوا له فى كل مكان نزل فيه وأقام لعدة أيام، وعرضوا أموالهم وأرواحهم على السيد أحمد الشهيد فقبلهم غزاة فى سبيل الله، وجنودًا فى المعركة.

وأول مدينة نزل فيها الإمام أحمد مع جماعته المجاهدين بعد خروجه من "تونك" كانت "حيدرآباد سنده" وقد وصلتها القافلة بعد سفر طويل شاق، فاستقبلها الأمراء "ولاة الحكم المسلمون" استقبالا رائعًا، واحتفوا بها بالغ الاحتفاء، وأكرموا السيد إكرامًا لائقًا، فأقام فيهم أيامًا، وأفاض عليهم بركات، حتى سرت فيهم موجة من الدين والتقى، ونالوا حياة جديدة من الإيمان والحنان، وبايعوه على الجهاد والقتال والتفانى فى سبيل الله.

ومر السيد أحمد الشهيد بمدينة "شكاربور" وأقام فيها خارج المدينة، فزاره جمع كبير من العلماء وأصحاب الشرف والصلاح، وقد قامت الحكومة بتسديد نفقات القافلة مدة إقامتها

فى شكار بور، ومنها توجه السيد والجماعة إلى كابل فمروا على مدن عديدة حتى وصلوا إلى "قندهار" ومنها إلى "غزنى" ثم إلى "كابل" وقد نال السيد فى جميع المدن والقرى التى مر بها أو نزل فيها من الحفاوة والقبول ما لم يعرفه التاريخ إلا قليلا جداً، تلقاه العلماء والأمراء والولاة، والجمهور من الناس فى كل مكان بحفاوة بالغة، واعتبروه إماماً يجب أن يقتدى به، وقائداً يستطيع أن يقود الأمة الإسلامية خير قيادة، ويقدر على أن ينقذ المسلمين من الاضطهاد والقسوة والظلم إلى الرحمة والحب والعدالة.

ومكث السيد فى كابل شهراً ونصف شهر حتى آذن بالرحيل إلى "بشاور" وتهافت عليه الناس وبايعوه على الجهاد، ثم وصل إلى "نوشهره" حيث أقام برهة من الزمان يتفقد الأحوال، ويستعرض وضع الحكومة والشعب، إلى أن بعث رسالة إلى حكومة البنجاب يدعوها إلى الإسلام أو الجزية أو القتال - شأن الحاكم الإسلامى والقائد المسلم - ولكن الحكومة أبت إلا القتال وجهزت جيشاً كثيفاً فى ساحة "أكوره" التى تبعد عن "نوشهره" بنحو عشرين كيلو متراً.

وجهز السيد أحمد الجيش الإسلامى ونظمه للقتال وشن الغارة على العدو فى السحر، والتحم الفريقان وكانت معركة حاسمة سقط فيها العدو ما بين قتيل وجريح، وقد بلغ عدد القتلى

سبعمائة والجرحى كذلك، أما المسلمون فقد استشهد منهم ٣٧ رجلا وجرح ٣٥، وأسفرت الحرب عن انهزام العدو وهرويه من ساحة الحرب، وتشجع الجيش الإسلامى لشن الغارات على العدو، ويويع السيد أحمد الشهيد على الإمامة والإمارة كى لا يكون اضطراب فى الجيش، بل يكون مرتبطًا بنظام، وممتثلا أمر الإمام وقائمًا بتعليمات الأمير وأعلن السيد فور مبايعته بالإمامة بوجوب طاعة الأمير والعمل بتعاليم الإسلام وأحكام الشرع، والقيام بما يعود على الناس من امتثال الأمر والامتناع عن المعارضة والتظاهر بما لا تسوغه الشريعة، ولا يسمح به نظام الجيش، ﴿يَا أَيُّها الذِينَ آمَنوا أَطِيعوا اللهَ وَأَطِيعوا الرسُولَ وَأُولِى الأَمْرِ مِنكُم﴾.

وقد أعقب نظام الإمامة خيراً كثيراً، وأنتج بركات، إذ سبب تنفيذ النظام الشرعى بحذافيره، وقضاء المحاكمات والخلافات بسرعة، وخضع الناس كلهم أمام هذا النظام حتى لم يبق بينهم خلاف ولا خصام.

وبعد أن خاض الجيش الإسلامى معارك عديدة ضد "السيخ" وأبلى فيها بلاء حسنًا نجح فى فتح بشاور، وكسر شوكة العدو وتنازل له عن الحكم، ودخل السيد "بشاور" فاتحًا فاستقبله البلد كله أحر استقبال، ورحب به الناس كزعيم للأمة الإسلامية ومنقذ للمسلمين من براثن استعمار الكفر والنفاق، ورأوا فيه إمامًا

كبيراً، وقائداً عظيماً، حمل راية الإسلام فخاض المعارك وهزم الأحزاب، وفتح البلاد، وبيض وجوه المسلمين.

وما أن دخل السيد البلد حتى نادى فى الناس بالأمن، وآذن فى المجاهدين أن لا يأخذوا شيئًا بغير حق، ولا يقوموا بالتعدى والسطوة على أهل البلد، حتى إذا استتب الأمن ورجع كل شىء إلى نصابه، وساد الجو هدوء، والقلوب طمأنينة، وعادت المومسات والبغايا إلى بيوتهن مختفيات وأقفرت حوانيت الخمر والمسكرات، نفذ القانون الإسلامى وأقيمت حدود الشريعة، وفرضت العقوبات على المجرمين، وتاركى الصلاة وقامت دولة إسلامية خالصة، كانت للإسلام فيها الكلمة النافذة، وللسيد الحكم والإدارة.

لم يكن السيد أحمد الشهيد يرمى من هذه الجهود المخلصة كلها إلا إعلاء كلمة الدين، وتنفيذ قانون الشريعة فى أرض الله، وتأسيس المجتمع على مبادئ الدين الصحيحة ومثله العليا، وتلك أمنية ساورته وأصحابه مدة من الزمان وقد أعد لتحقيقها عدة لا يمكن أكثر منها فى ذلك الزمان، وأخيراً نزل فى ساحة الجهاد والكفاح العملى، فلما انتصر على رقعة من الأرض وغلب عليها وفتحها لم يسعه إلا أن يؤسس فيها حكم الله، وينفذ قانونه، ويقيم حدوده، ولا ينتظر لذلك فرصة أو مناسبة، بل يستعجل فيه ويسرع تمام الإسراع لكى لا يحول دون ذلك شىء، ولا يصيب

العزائم خور، والعدو بالمرصاد، وعيون السخط تترقب الهزيمة والانهيار.

وما أن حل السيد وجماعته "بشاور" منتصرين فاتحين حتى أنفذوا فيها نظام الإسلام المالى والعدلى، وفرحوا بذلك وشكروا لله تعالى على ما وفقهم إلى تحقيق هذا الأمر، وعاش السيد وجماعته فى فرح مستمر وسرور متواصل يغتبط بهذه النعمة والكرامة التى أولاها الله إياهم، ولكن أهل بشاور - الذين لم يألفوا الحياة تحت ظل الإسلام، وإنما تعودوا حياة "الجاهلية" والعيش على هامش الحياة - استثقلوا دخول السيد فاتحًا، وتأسيس دولة إسلامية خالصة تقوم على أساس الإسلام، تقام فيها الحدود، وتفرض فيها العقوبات، وتحترم فيها الشعائر الدينية، فاحتملوا ذلك برهة من الزمان، ثم ثاروا عليه أشد ثورة، وقتلوا رجال السيد وفتكوا بهم، وكم منهم من قتلوا وهم ركع سجد أثناء تأدية فريضة الصلاة.

وبلغ السيد نبأ الثورة ضده فمادت به الأرض، وبلغ به الأسف والحزن مبلغًا لا يكاد يصبر عليه، وأصاب الجماعة من فجيعة الهزيمة وألم الغدر ما ثبط هممهم وكسر شوكتهم، وقرر السيد الانتقال إلى مركز آخر، يستأنف فيه سير الكفاح ويبدأ الجهاد من جديد، عسى أن ينتصر دين الله فى أرض سيطر عليها سباع الإنس وذئاب البشر.

ومن جملة ما حمل أهل بشاور على الثورة ضد السيد أحمد الشهيد وجماعته وإحداث العراقيل فى طريقهم هو نفاق علماء السوء أيضًا، وإذاعتهم للدعايات الكاذبة والأباطيل، ونسج خيوط المؤامرات والدسائس، وتدبيرهم خطة لحط مكانة السيد أحمد وإقصائه عن منصبه ومهامه التى أراد تحقيقها فى مجال الجهاد، وإحداث الثورة على التقاليد والنزعات السيئة والميول الفاسدة السائدة على المجتمع فى ذلك العصر. فكان هؤلاء العلماء يقولون:

هذه الجماعة (جماعة المجاهدين) لا ترى حرمة لأموال المسلمين وأرواحهم فتصيبهم بضربات قاتلة وخسائر فادحة وكان منهم من يعد المجاهدين بغاة ثائرين على الدين والشريعة ويسمى المحاربين لهم شهداء فى سبيل الله.

هذا وقد أذاعوا فى الجمهور عن شخصية السيد أحمد أقاويل وظنونًا فقالوا: إنه فظ غليظ، سرعان ما يغضب ويثور، وكلما وجه إليه أحد نصيحة أو كلامًا معقولا يسخط عليه ويتربص به الدوائر، فلما راى السيد أن هذه الجماعة من العلماء تحول دون عمله، وتريد أن تهدم البناء الذى بذل فى سبيل إقامته مقداراً صالحًا من الأموال والأرواح، وتحمل لذلك مشقات ومكاره، أقبل على إصلاح هذه النزعة وسد هذا التيار، ووجه رسالة إلى علماء بشاور شحنها بالدليل والاحتجاج، وهى تلقى

بعض الضوء على الأوضاع السائدة فى ذلك الحين وتبين أفكاره وآراءه، نقتطف منها ما يلى:

"بلغنا أن هؤلاء المفترين ينسبون إلينا الإلحاد والزندقة، ويقولون إن هذه الجماعة لا تمت إلى دين ولا عقيدة، وإنما تتبع هواها وتبحث عن مرتع خصب لمتعة النفس وملذاتها، سواء اتفق ذلك مع كتاب الله أم لم يتفق، وأعوذ بالله من ذلك، فاعلموا أن نسبتنا نحن الفقراء إلى هذا الأمر الشنيع بهتان عظيم، فليس هذا العاجز وأسرته من الخاملين فى هذه البلاد، فإن آلافًا من الناس خاصة وعامة يعرفون هذا العاجز وأسلافه، كما يعرفون جيداً أننا نتبع المذهب الحنفى كابراً عن كابر، ولا نزال نتبع هذا المذهب فى جميع أعمالنا وأقوالنا دون أن نتجاوزه فى قليل أو كثير، غير أن الإنسان مفطور على النسيان والخطأ، وإننى لا أنكر ضعفى، ويمكن أن أرتكب أخطاء بمقتضى الفطرة، فإذا أخطأت فى شأن ثم تنبهت على موضع الخطأ فسأعترف به وأرجع عن ذلك.

ومما يجب أن نعرف: أن المحققين فى كل مذهب لهم طريق فى العلم يخالف طريق غير المحققين، فإن ترجيح رواية على رواية نظراً إلى قوة الدليل، وتوجيه العبارات المنقولة عن السلف والتوفيق بين المسائل المدونة المختلفة، إلى غير ذلك مما أثبت عن أهل التحقيق من العلماء، لا يجعلهم خارجين عن الدين،

وإنما هم لباب أتباع ذلك المذهب، أما من يشك فى هذا الأمر فليحدثنى وجهًا لوجه، ويقوم بحل هذه المشكلة فيفهم ويفهمنى.

ويرد على ما نسب إليه من هتك حرمة المسلمين وإصابة أموالهم وأرواحهم بالنهب والقتل يقول:

"ويرمى المفترون هذا العاجز بالظلم وهتك الحرمات، ويقولون إننى ألعب بأعراض المسلمين وأموالهم بدون سبب شرعى، وأستخدم فى هذا السبيل سلاقة اللسان وتدبير الحيلة، ﴿سُبحَانَك هَذا بُهتَان عَظِيم﴾ فلم يضرب هذا العاجز أحدًا بسوط دون سبب شرعى، بل ولم يضرب الكلب بدون سبب، وكل من عاش مع العاجز أيامًا علم بهذا الأمر.

أما ما أجرى الله تعالى على يدى من لوم بعض المرتدين وتأنيب المنافقين فأعده أعظم سعادة وآية قبول أعمالى عند الله. ومن الحقيقة أن الغيرة فى نصرة الدين الحنيف، والشوق إلى إهانة المعاندين وذلهم من لوازم الإيمان، ومن تجرد عن غيرة الإيمان، وحمية الدين فلا شك أنه حرم الإيمان، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا مَن يَرتَد مِنكُم عَن دِينِه فَسَوفَ يَأتِى اللهُ بِقَومٍ يُحِبهم ويُحبُونه، أذِلةٍ عَلى المُؤمِنِين أعِزةٍ عَلى الكَافِرِين، يُجَاهِدون فِى سَبِيلِ الله، وَلا يَخَافُون لَومَةَ لائِم﴾ وقال تعالى: ﴿يَاأَيُّها النبِى جَاهِدِ الكُفَّارَ وَالمُنَافِقِينَ وَاغلُظْ عَلَيهِم، وَمَأوَاهُم جَهَنَّم﴾.

وأعود فأقول: إن كان هناك تقصير وقع منى نحو الدين ولا أدريه، فيجب أن ينبهنى عليه هؤلاء الناس بالحكمة والموعظة الحسنة دون أن يغتابون فى مجالسهم ويجعلونى هدف الطعن ومركز اللوم والتأنيب عليه، ويخذلوننى وأصحابى فى عمل الجهاد ويترفعون على ذلك، وقد جاء فى الحديث الشريف "الجهاد ماض إلى يوم القيامة، لا يبطله جور جائر ولا عدل عادل" وهذا الحديث معروف لدى علماء الحديث.

وأسأل علماء الوقت الحاضر أن يقوموا بواجب الأمر بالمعروف - للناس عامة ولهذا العاجز خاصة - والنهى عن المنكر، ويدعونا إلى الطريق المستقيم، وكل مشكلة أو اعتراض يخطر ببالهم أو يتلجلج فى صدورهم يجب أن يشافهونى به ويقيموا عليه الدليل الشرعى، ليتمكن هذا الفقير من إصلاحه والانتقال من عبادة النفس إلى عبادة الله وحده، وهو مستعد للتوبة من كل ما يخالف أمر الله ورسوله فى قوله وعمله، ويثوب إلى الطريق الصحيح، ولكن الذين يثيرون الخلاف وينالوننى بالاعتراض إذا لم ينبهونى على ما أقترفه من ذنب، ولم يحدثونى فى هذا الموضوع فسوف يعود وبال ذلك عليهم وهم مسئولون عنه، وأما قول المفسدين والكاذبين من أن هذا العاجز إذا أصابه أحد العلماء وفضلائهم بنصيحة وأمر بمعروف يواجههم بغضب وعبوسة، ويأخذهم بضرر وخسارة فى الأموال والأرواح، ويتربص

بهم الدوائر فلا أصل لهذه الفرية ولا أساس لها أبدًا، وقد قبض على جواسيس المنافقين وعيون الكفار ولم نأخذهم بأى غلظة أو شدة، بل واحترسنا من أن يصيبهم أذى فخلينا لهم سبيل العافية والسلامة.

فإذا كان هذا الشأن مع الجواسيس والعيون فكيف يزعم أحد أننا نغضب أو نثور على العلماء الذين يأمروننا بالمعروف وينهوننا عن المنكر، وهل من المعقول أن نغمض العين عن المنافقين وعيونهم ثم نصيب العلماء بالغضب والثورة والأذى، إن هذا لمما لا يسيغه الخلق الإيمانى ولا تسمح به المروءة والكرامة".

وحاول السيد بعد ذلك أن يتخذ له مركزًا آخر، وينتقل من البنجاب إلى كشمير التى اختارها لعدة أسباب، وجهز لذلك العدة والعتاد، وجمع دعاة الناس فاعترف بخدماتهم وشكر لهم ثم أخبرهم بقصده ووجه إليهم كلمات وقعت منهم كل موقع واضطربوا لها أشد الاضطراب وقالوا: إننا لا نصبر على فراقكم، ولا نستطيع أن نفارقكم فى الحياة، وعرض كل واحد منهم نفسه لخدمة الدين ودعم بنيانه.

وسمح لهم السيد بالمرافقة بعدة شروط، وآذن بالرحيل فى شهر رجب سنة ١٢٤٦ فكان منظرًا يبعث الحزن ويثير الشجى فى النفوس، وما إن غادر السيد البنجاب حتى فارقها الأمن على

الأرواح والأموال، وهاجم "السيخ" أهل البنجاب وشنوا عليهم الغارة بما لم يكن لهم به عهد من قبل، ففتكوا وقتلوا وأحرقوا البيوت والمنازل وهتكوا الحرمات والأعراض.

وصل السيد إلى "بالاكوت" مغادراً "بشاور" بعدما صادف فى الطريق اشتباكات مع "السيخ" وكتب الله أن يدفن هذا الكنز الثمين وجوهرة تاج المسلمين وواسطة عقدهم فى أرض بالاكوت.

وفيما يلى نبذة من رسالة للسيد أحمد الشهيد التى بعث بها من بالاكوت إلى الأمير "وزير الدولة" قبل الشهادة بأحد عشر يومًا، وهى تلقى ضوءًا على ما كان ينويه السيد بجهاده وما كان يعيش فيه من قلق واضطراب لسوء حال المسلمين، وكم كان يود أن يراهم مبيضى الوجوه، ذوى عز وسيادة، وينقذهم من مخالب "الاستعمار الغاشم" الذى كان جاثمًا على صدور المسلمين، يقول:

"وبما أن أهل "سمة" كانوا أشقياء لم يرافقوا المجاهدين فى جهادهم ولم يوافقوهم على مبدئهم، بل وبلغ بهم الشقاء والسفاهة إلى أن اغتالوا بعض رجال المجاهدين الذين خرجوا من الجيش إلى القرية لقضاء بعض مآربهم وحوائجهم، ولو أن الجيش كان مستعداً للقتال وخدمة الدين وكان فى حنين شديد نحو الانتقام من المنافقين المتمردين وإذهاب ريحهم.

ولما كان الغرض من الإقامة فى "سمة" أن يرافق أهلها

المجاهدين ويقاتلوا معهم العدو؛ ولكن خاب الظن فيهم ويئست منهم حتى غادرتهم إلى جبال "بكملى" حيث استقبلنا الناس بأخلاق جميلة ووعدونا بالإسهام فى الجهاد، ثم آوونا فى وطنهم، والآن نحن فى قرية "بالاكوت" التى تقع فى ممر من ممرات تلك الجبال، وقد رزقنا الله هدوءًا وطمأنينة، كما أن جيش العدو نازل فى مكان يبعد عنا نحو أربعة فراسخ، أما القرية التى نزلناها فهى مصونة من كل خطر وسوف لا يصلها العدو إن شاء الله إلا إذا أقدم المجاهدين وخرجوا يحاربونهم، فهنالك يمكن أن يحمى وطيس الحرب. غير أن المجاهدين يريدون معهم الحرب فى ظرف يومين أو ثلاثة أيام، ونرجو الله سبحانه وتعالى أن يفتح علينا أبواب رحمته ونصرته ويرزقنا الانتصار والغلبة. وإذا كان التوفيق الإلهى رائدنا وانتصرنا فى المعركة نرجو أن يستولى المجاهدين على أرض كشمير ونهر جهلم، وأرجو أن لا تنسانا فى صالح دعواتك للنجاح فى مهام الدين وانتصار المجاهدين، والسلام".

وقد حشد "شير سنغ" جيشه ومدافعه من كل جانب فى "بالاكوت" وأقام ثكنة على مسافة فرسخين منها، وكان هناك طريقان يذهبان إلى "بالاكوت" كان واحد منهما طريقًا جبليًا وعرًا لا يعرفة إلا الخاصة من خبراء البلد، أما الطريق الثانى فكان يمر بجسر صغير إلى لاهور، وأقام السيد على كل واحد من

الطريقين حراسًا من الجيش كى لا يتمكن العدو من الدخول فى "بالاكوت".

رأى المسلمون المجاهدون معالم الانتصار بادية، وكان الفتح قريبًا، وكاد ينصرف جيش العدو إلى مقره مؤديًا بالانهزام معترفًا بالغلبة والسيادة للمسلمين لولا أن وقع مالم يكن يرجى، ولم يكن يخطر على بال، وكانت مأساة أى مأساة.

جاء رجل ممن كانوا يحرسون الطريق إلى "شير سنغ" وأفضى إليه سر الطريق بغاية من التفصيل، وجاء برجاله وعرفهم الطريق جيداً، وذلك ما نفخ فى "شير سنغ" ورجاله روحًا جديدة وعزمًا جديداً على شن الحرب على المسلمين وقد أعد العدة والعتاد ليلا إلى ليل وهاجم حراس الطريق واستولى على الممر، وانتشر جيشه فى خبايا الجبل وطرقه كالجراد.

ورأى المجاهدون المفاجأة المؤلمة، واطلع السيد على السر، واستعدوا للجهاد ومساجلة الحرب مع العدو، ولم يداخلهم الخوف، ولم يواجههم الرعب، وإنما تحمسوا للقتال وللشهادة فى سبيل الله، ورأوا الموت عينًا فاستبشروا وفرحوا، وتبادلوا بينهم التحيات، وهنأ بعضهم بعضًا، واستعد السيد للقتال كأنه على ميعاد من ربه، وتهلل وجهه بشراً، كأنه يرى الجنة ونعيمها.

ونزل قواد الجيش ساحة القتال فنظموا الجيش، وواجهوا العدو بشجاعة نادرة وبسالة منقطعة النظير، ومن بينهم الشيخ

إسماعيل الشهيد الذى قاتل قتالا مريرًا، وظهرت منه بطولة خارقة، وحماسة بالغة وقوة كبيرة، وأبلى فى الحرب أحسن البلاء حتى تحققت أمنيته، واستشهد هذا الإمام الجليل فى سبيل الله، ونال من خيرى الدين والدنيا ما لم ينله كثير ممن قبله ولا بعده، سلام الله على روحه الطاهرة.

وحمى وطيس المعركة، واشتد أوارها، وكانت ساعة حاسمة، يقاتل فيها المسلمون الكفار فيقتلون ويقتلون، وقد صدقوا ما عاهدوا الله عليه ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُم وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ، فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ وإذا بالسيد الإمام أحمد الشهيد يختفى عن الأنظار وهو يقاتل العدو ببطولة رائعة، فقد قبله الله شهيدًا، ورزقه الشهادة الحقة، واشتد حماس المسلمين، ولم يخوروا ولم يقعدوا بل وما زالوا يقاتلون حتى آخر لحظة من العمر، وأسفرت الحرب عن شهادة عدد وجيه من المسلمين، واستطاع "شير سنغ" أن يبسط حكمه ويقيم عرشه على أرض خضبت بدماء الشهداء الزكية وعمرت بأنفاسهم القدسية.

وأفل نجم المسلمين بسبب خطأ ارتكبه بعض المنافقين، وتوقف تاريخ المسلمين الحديث إلى هذا الحد من البطولة والمعجزة التى كاد يصنعها أهل الإيمان، وأصبح الحكم الشرعى فى الهند حلمًا من الأحلام لا يرجى تحققه إلى قرون وأجيال، وتأخر التاريخ إلى قرون، وتخلف ركب المسلمين إلى حيث

بدأوا منه سيرهم، وسعدت أرض بـالاكوت باحتضـان أكـبر بطـل وأعظم مجاهد عرفه التاريخ الإسلامي الحديث، يوم ٢٤ من شـهر ذي القعدة سنة ١٢٤٦هـ .

وانتهت قصة الجهاد وإقامة الحكومة علـى أسـاس الكتـاب والسنة، وسجل التاريخ أنـدر مثـال للبطولـة والحمـاس، وأعظـم أسوة للتفاني في سبيل الله والاستماتة لوجه الله.

وتوجه البقية من أصحاب السيد الشهيد وجماعة المجاهدين إلى "استهانة" حيث أسسوا مركـزاً عسـكريًا واقـاموا دولـة علـى أساس الحكم الإسلامي، وتبنوا المبدأ الذي مـات عليـه سـلفهم وعضوا عليه بالنواجذ وهم يحنون إلى لقائـهم، وينتظـرون اليـوم السعيد الذي يتمكنون فيه من زيارتهم عند ربـهم ﴿مِـنَ المُؤمِنِـين رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَليه فَمِنهُم مَن قَضَى نَحْبَهُ، وَمِنهُم مَـن يَنتَظِر، وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾.

ولو أن السيد أحمد الشهيد لم ينجح في خطته التـي وضعـها وجاهد من أجلها، ولو أنه لم يتمكن مـن تأسـيس دولـة إسـلامية قوية في هذه البلاد، واستشهد في سبيل ذلك قبل أن يتحقق حلمه ويكتمل بناؤه الذي أقامه، إنه بالرغم من ذلك كله منح للمسـلمين في العالم كله أسوة العالم الرباني الذي يجمع بين العلم والسنان، وبين السيف والإيمان، والذي يستطيع أن يتحدى الدول القويـة، والحكومات الواسعة، ويحاربـها بقـوة الإيمـان والسـيف وبعـدة

العلم حتى يخضع له كل شيء يعوق سيره ويخشع أمامه العظماء والجبابرة من الولاة والملوك والأقيال.

مضى السيد ـ أحمد ـ سلام الله على روحه الطاهرة ـ إلى رحمة الله وهو بعيد عن وطنه، غريب فى ديار الكفر والشرك، وقد مر على شهادته قرن ونحو أربعين سنة، ولكن مثال البطولة والتفانى الرائع الذى خلده فى التاريخ الإسلامى لا يزال يحرك النفوس ويشعل الهمم، ويحث الحداة.

إن العالم الإسلامى كله ينتظر رجلا يقوم بما قام به السيد أحمد الشهيد، إن حاجة العالم الإسلامى اليوم إلى روح أحمد الشهيد وإيمانه وبطولته أشد وأعظم من حاجته بالأمس، إنه ينتظر حكم التاريخ، فيمن يمثل هذا الإيمان، ويؤدى هذه البطولة، ويلعب هذا الدور[١] .

---

[١] استفدنا فى تأليف هذه الرسالة من كتاب "سيرة السيد أحمد الشهيد" بالأردية لأستاذنا الكبير السيد أبى الحسن على الحسنى الندوى، وهو المصدر الوحيد الذى اعتمدنا عليه.

(١٥)
ساعة مع الشيخ
ولايت على الصاد قبورى

شاب ناهض نال من عناية والديه وحفاوة أسرته أكبر قسط ووجد من حب جده، وإعجاب عائله أعظم نصيب وتمتع بكل نعمة من نعم الحياة فتربى فى حجر الترف.

وتقلب فى أعطاف النعيم، وعاش فى رفاهية العيش ولذة الحياة، ويقى منفرداً بمعيشته، مغتبطًا بنعمته، يلبس من ملابس الحرير والديباج ما ثمن، ويأكل من الطعام اللذيذ والغذاء الشهى ما طاب، ويستعمل من الطيب ما يعطر الجو، ويلبس من خواتيم الذهب ما يلهى الأبصار، وبلغ من الرفاهية والنعمة حيث أشير إليه بالبنان، وعد من متأنقى الشباب.

شاب بلغ قمة التنعم بلذات الحياة، ووصل ذروة المجد والكرامة فى النسب والطيب، وتبوأ منصب الرئاسة فى بنى قومه، فقد كان جده عمدة مقاطعة "بهار" ومن أثرياء الناس، فيها عرفت أسرته بالشرف والكرامة حينا وبالغنى والرفاهية حينا آخر مع التصلب فى الدين والرسوخ فى العقيدة وحب العلم والعلماء، وبذلك استطاعت أن تجمع بين خيرى الدين والدنيا، وتعطى لكل

منهما نصيبًا من المادة والمعنى.

إن هذا الشاب هو ولايت على بن الشيخ فتح على، ولد فى صادق بور بنته سنة ١٢٠٥هـ وكانت أسرته تجمع بين حب الدين وسيادة الدنيا، وشرف النسب وعزة الجاه، ولما بلغ من عمره أربع سنوات دخل كتاب قريته، وفرغ من العلوم الابتدائية وهو ابن اثنتى عشرة سنة، ثم جاء إلى لكهنؤ حيث أتم دراسته وقرأ الكتب االدينية على الشيخ محمد أشرف، وفى أحدى المناسبات حضر معه إلى الإمام السيد أحمد الشهيد أيام إقامته فى لكهنؤ واستمع إلى بعض مواعظه فكان لها وقع أى وقع فى نفسه.

حتى كان ذلك سبب تحوله من حال إلى حال، ومن حياة إلى حياة، ولم يعد الشاب الناهض ريب النعمة وحليف الرفاهية وفتى الأناقة والرشاقة والترف، وإنما أصبح خادمًا فقيرًا من خدم أحمد الشهيد ورجلا عاديًا من أتباعه والعاملين معه، وتناسى كل قصة من قصص الحياة الرغيدة والعيش المترف.

واستأنف سيره فى الحياة وبدأ الرحلة من جديد، وعاد إلى الماضى يفكر فيه ويتندم على حياة قضاها فى مالا يعنى المسلم، فى لذة وترف ونعمة ورفاهية وكل ذلك مما لا يحتاج إليه المسلم ولا يبغيه فى الدنيا.

وأراد أن يستدرك ما فاته من خير، ويتلافى ما جناه على نفسه فى الماضى، وطلب إلى الإمام الشهيد أن يأذن له بالمبايعة

والانضمام إلى أتباعه ومريديه، وأذن له الإمام الشهيد لما توسم فيه من الإخلاص والإيمان، وعلم أن مصدر هذا الإقبال إنما هو القلب، إذ لولا الأمر على هذا لم يكن الشاب الأنيق الذى يبدو عليه أثر النعمة والرفاهية وتتجلى عليه نضرة النعيم، لم يكن ليقبل على دعوته، ويستجيب لندائه بمثل هذه السرعة، ويؤثر بؤس الحياة وشقاء الحظ على ترف العيش وسعادته.

هجر الشاب "ولايت على" كل لذة وكل نعمة ولازم الإمام الشهيد وأصحابه وسافر معهم إلى "رائى بريلى" موطن الإمام وبقى يشتغل بالدراسة والرياضة والمجاهدات، ويقضى جل وقته فى العبادة والإنابة والذكر والنوافل، وفى التدريب على الفنون الحربية وتوطين النفس للجهاد والقتال مع أعداء الله لتكون كلمة الله هى العليا.

وبدأ يدرس الحديث الشريف على الشيخ إسماعيل الشهيد ويذهب إلى الغابات البعيدة فيحتطب منها، ويحمل الأثقال على رأسه ويطبخ الطعام بيديه ويشتغل بعمل البناء والتعمير فيحمل الطين والآجر على رأسه، حتى أثر ذلك فى وجهه وتغير لونه ونحل جسمه من كثرة ما كان يشتغل بالخدمة والعمل، ويجتهد فى العبادة والرياضة، وله فى ذلك حكاية غريبة.

يروى أن شيخ فتح على والد الشيخ "ولايت على" بعث ذات مرة خادم الأسرة - الذى كان مختصًا بخدمة الشيخ ولايت على قبل

أن يسافر إلى لكنهؤ - إلى ابنه ولايت على بمبلغ كبير وملابس كثيرة يستعين بها فى حاجته، ولما وصل الخادم إلى رائى بريلى مقر الشيخ ولايت على سأل الناس عنه فدلوه عليه وهو مشتغل بعمل الطين للبناء، لابسا ملابس العمال، وكان الجهد قد أثر عليه تأثيرا أدى إلى تغيير لونه ونحول جسمه فلم يعرفه الخادم وسأله، أين يوجد الشيخ ولايت على العظيم آبادى؟ فأجابه الشيخ: هو أنا . . . . . ولكن الخادم امتعض وقال: إننى لست أعنيك . . وإنما أريد الشيخ ولايت على ابن الشيخ فتح على وسبط السيد رفيع الدين عمدة مقاطعة بهار، فقال له الشيخ ولايت على . . . أنا ولايت على بن الشيخ فتح على الصادقبورى .. فتعجب الخادم من كلامه وقال ما كنت أدرى أنك تهزأ بى، وهنالك أذن له الشيخ ولايت على ، أن يبحث عن صاحبه فى الجماعة حيثما يكون، ولما طال به الزمان وتأكد من كلام الناس أن الشيخ ولايت على هو جاءه ليؤدى إليه الأمانة التى أتى بها ويكى على ما فرط فى جنبه أحر البكاء، وقال: ما كنت أعلم أن رييب نعمة يتغير لونه بمثل هذه السرعة، ويروقه الجهد والبلاء بدلا من النعمة والهناء، ونهض الشيخ ولايت على من ساعته حاملا حاجته التى بعثها والده، إلى الإمام السيد أحمد الشهيد وألقاها على قدميه قائلا : إننى لا أستحق فليفرقها الشيخ على من رآهم مستحقين إياها ، وعاد إلى انهماكه فى عمله دون أن تؤثر

عليه هذه الحادثة شيئا.

ويفضل هذا التفانى فى عمل الدعوة والإصلاح والانذياب والروحانية والإخلاص تمكن من أن يتبوأ منصبا عاليا فى الدين، ويقوم بحمل أمانته أحسن قيام.

وقد انصبغ بصبغة الإمام السيد أحمد الشهيد فحمل جميع أهل أسرته على مبايعته واتخاذه أسوة وإماما فى أمور الدين والحياة. وعندما توجه السيد الشهيد إلى الحج خلفه فى الدعوة والإصلاح وتبليغ أمور الدين إلى الناس وتربيتهم وتعليمهم فى الوطن. وعزم السيد على الجهاد فكان الشيخ ولايت على أكثر الناس حماسا وأشدهم استعدادا للجهاد مع العدو، وخرج إلى ساحة الجهاد فى ركبه ولكن السيد الشهيد بعثه فى أمر سفارة إلى كابل فأقام فيها مدة شهر ونصف، اتصل خلالها بالجمهور عن طريق المواعظ والمحاضرات التى كان يلقيها إليهم كل يوم، وحرضهم فيها على الجهاد والقتال وأشعل فى قلوبهم نار الاستماتة فى الدين والتفانى فى إعلاء كلمة الله فى أرضه، ويعثهم على التوحيد الخالص من كل شائبة من شوائب الشرك، وعلى اتباع سنة رسول الله ﷺ والحرص على اقتدائه.

ورجع الشيخ ولايت على من كابل إلى بمبانى وحيدر آباد وما هى إلا عدة أيام إذ عرف فى أرجاء حيدر أباد وطارت شهرته إلى الآفاق.

وجاءه الأمير مبارز الدولة (أمير حيد آباد دكن) فبايعه واستفاد الناس على اختلاف مذاهبهم ونظراتهم من وجود الشيخ ومواعظه وأحاديثه التى كان يلقيها إلى الحفلات العامة كل يوم، حتى تاب عدد كبير من الناس يبلغ مئات الآلاف وبينما كان منهمكا فى عمل الدعوة والإرشاد إذ فوجئ بنبأ شهادة السيد الإمام أحمد الشهيد ووقعة بالاكوت فكان النبأ فاجعا صدمه أشد صدمة.

وعادت مسئوليات الدعوة والإصلاح ومسئولية التقدم بعمل الإمام الشهيد والسير بالمبادئ التى كان يتبناها على الشيخ ولايت على فشعر أنه تحت عبء ضخم من أمر عظيم، ولكنه توكل على الله واستعان به فى العمل وتشجع لتحقيق بغية الإمام السيد أحمد الشهيد واستضاء من قول الله تعالى: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم﴾، واستوحى منه عزما جديدا وحماسا جديدا فتقدم بأمر الدعوة بجهود متضاعفة، ونفوس متضافرة ونال من الناس إقبالا متزايدا، ورأى فيهم حرصا على تعلم أمور الدين واتباع السنة.

ووصل إلى طونه "بتنه" فبدأ بعمل التبليغ والدعوة والتنظيم لجماعة المؤمنين للجهاد فى سبيل الله، وجدد الناس عليه البيعة واعتبروه خليفة الإمام السيد الشهيد، وأسس بيت المال، وعين الدعاة والمبلغين فى مقاطعة بهار، وبعث شقيقه الشيخ عنايت

على داعيا إلى مقاطعة بنغال، وآخرين إلى أقاليم متعددة فاستطاع دعاته أن ينبثوا فى أرجاء البلاد كلها، ويقوموابعمل الإصلاح والإرشاد ونشر دعوة الدين إلى الناس كافة، وقام بنفسه يتجول فى المدن والقرى يدعو الناس إلى الدين ويعلمهم كلمة الإسلام ولا يبالى بأى أذى يصيبه فى هذا السبيل، وإنما كان يعده نعمة من الله، وكان يشغل كل لمحة من لمحاته فى صالح الدعوة وخير الإسلام والمسلمين، ولم يكن يفكر فى الاستراحة، وإنما كان يصل ليله بنهاره وصباحه بمسائه مستمرا فى الجهاد والدعوة، مشتغلا بأداء واجبه نحو الإسلام والمسلمين.

وكان الشيخ ولايت على يتصف بأخلاق تشبه أخلاق الصحابة رضى الله عنهم وكان يحمل من الفضل والكمال ما يشهد باتصاله بالله سبحانه وتعالى اتصالا عميقا، يعيش عيشة الفقراء والمساكين، وينظر إلى الدنيا نظرة ازدراء واحتقار، وكانت مجالسه تبعث فى النفس زهدا عن الدنيا وانصرافا إلى الآخرة، تبدو على وجهه دلائل الخضوع أمام قدرة الله والتفكير فيها والتواضع والحزن، وكثيرا ما كان يرفع يديه إلى السماء ليلا أو نهارا، يبتهل ويدعو الله طويلا، ويلبس من الملابس ما غلظ ويأكل من الطعام ما جشب، يعيش مع الفقراء عيشة متواضعة ساذجة ويصرف جميع دخله فى بيت المال، وينفق الهدايا على المساكين والمؤلفة قلوبهم، ويبعث الناس على الزهد فى الدنيا

والانصراف عنها كما كان يبعثهم على التواضع بطرق متعددة، كى تزول نخوة الجنس والافتخار بالحسب عن العريقين وينتهى الترفع فى جماعة العلماء، والاعتماد على العبادة فى الزهاد، ويزول الكبر من الأغنياء والشدة من المحدثين وينشأ فيهم على اختلاف طبائعهم وميولهم نزعة البحث عن الحق والخير، ولتبعث فيهم طبيعة الحب مع الفقراء والعمال وتقدير عمل الجهلاء والتألم بأعمال الفجرة والفسقة والاعتدال فى مسائل الدين الفرعية ويثبت كل ذلك بعمله دون القول، وينتهز الفرص والمناسبات لإلقاء كلمة الوعظ التى كانت تصدر من القلب فتؤثر فى القلب، ويحرض الناس على الهداية والدعاء والعبادة وخاصة على صلاة التهجد فكان أتباعه يلتزمون الدعاء والتهجد ويعملون بالدين وكان لتربيته تأثير أى تأثير يجعل القلوب مضطربة إلى الشهادة فى سبيل الله، وقد وفقه الله تعالى إلى إحياء سنن كثيرة كادت تموت فى تلك الديار لولا جهوده المستمرة وعمله المتواصل.

وبعد سنتين من إقامته فى الوطن توجه إلى الحجاز لأداء فريضة الحج وزيارة الرسول ﷺ ولما فرغ من تأدية مناسك الحج وأمور الزيارة رحل إلى اليمن وتجول فى عدة مدن عربية كنجدة وعسير ومسقط وحضر موت قضى فى كل منها وقتا لا بأس به مشتغلا بخدمة الدين وتبليغ رسالة الإسلام. وقد نجحت جهوده

فى حقل الدعوة فى هذه الديار أيضا واستطاع أن يصرف نفوسا كثيرة إلى التفكير فى رسالة الإسلام السمحة ويوجه القلوب إلى العودة نحو حظيرة الدين المنيعة، وأخيرا قرأ الحديث الشريف على القاضى محمد بن على الشوكانى وأخذ منه شهادة الحديث.

وعاد إلى الهند فصادف طلبا من جماعة المجاهدين المرابطين على ثغور بنجاب، وبعث شقيقه الشيخ عنايت على لمبارزة "غلاب سنغ" والى كشمير، وبعد مضى مدة يسيرة توجه بنفسه إلى الثغور ودبر أمور الحرب وقاتل "غلاب سنغ" وأتباعه واستمر فى الجهاد نحوا من سنتين، ولما رأى "غلاب سنغ" أنه لا مناص من أيدى المجاهدين التجأ للإنجليز وطلب منهم العون وتحالف معهم ووثق بحمايتهم وبدأ الإنجليز يحيكون خيوط المؤامرة فى الظلام ضد المجاهدين ويحملون الشعب فى البلاد المفتوحة على الثورة، وأخيرا اضطرهم إلى ثورة سببت خسارة عظيمة وفادحة للأموال والأرواح وجلبت على المجاهدين ويلات شقاء.

ومن سوء حظ المسلمين أن حاكم بالاكوت الذى كان قد طلب الشيخ "ولايت" على لنصرة المجاهدين تغير ولحق بالإنجليز وتناسى كل منة، وأطبق عينيه عن كل نعمة نالها من المسلمين، ولم يذكر أن المكانة التى احتلها إنما كان مرد ذلك إلى الشيخ

ولايت على وجماعته، فغدرهم وتآمر عليهم شأن كثير من الحكام والولاة.

ولما رأى الشيخ ولايت أن الوضع ساء إلى حد كبير وأن الأعداء لا يحتملون وجوده فى تلك المنطقة ولا يسمحون له بأى نشاط يقوم به أو عمل يؤديه اضطر إلى التوجه نحو "سوات" [١] وما كاد يصل إلى منطقة الحكم الإنجليزى إلا وقد أحاط به وجماعته وقبض عليه، ثم اضطره الحكام الإنجليز إلى أن يسافر إلى لاهور.

ولما وصل الشيخ ولايت على إلى لاهور ومنها إلى بتنه حيث وطنه وأهله صادف إنذارا من حاكم المدينة يفرض عليه وعلى شقيقه غراما ماليا قدره مائتا روبية على كل واحد منهما والبقاء فى الوطن لمدة سنتين دون الخروج منه إلى أى مكان آخر ما لم يصدر منهما ما يستحقان به عقوبة أخرى فى نظر الحكومة الإنجليزية، ودفع الشيخ هذه الغرامة المالية أمام حاكم المدينة فى بلاطه فى حشد عظيم من الجمهور كان يتمنى زيارة الشيخ والفداء عليه بمهجه وأرواحه، ورجع إلى منزله واشتغل بالمواعظ وتعليم أمور الدين وتربية النفوس كعادته فى السابق.

إن هذه العودة الإجبارية إلى الهند التى واجهها الشيخ ولايت على أقلقت باله وجعلته لا يهدأ ولا يطمئن، وإنما كان يتذكر

---

[١] ولاية على حدود بنجاب، وهى الآن فى باكستان الغربية.

الهجرة التى نواها، والجهاد الذى أزمع عليه بأسف بالغ وحزن عميق وربما كان يقع فى السجدة ويبتهل إلى الله ويتضرع أمامه ويبكى بكاء الحزين ويدعو الله تعالى أن يرزقه الهجرة ويقر عينه بنعمة الجهاد، وقد ينشد البيت الذى معناه "دعونى أعيش فى هذه الروضة وأقضى وقتا فى حديقتها، وإذا استطعتم أن تربطوا ذيلى بوردة منها فافعلوا".

وعندما بقى فى انتهاء مدة العقوبة عدة أشهر قام الشيخ بتنظيف بيته وتأثيثه بأدوات الزينة والجمال، كما عمر الاصطبل بأفراس عتيقة واشترى عددا من الحمامات ذات الألوان الجميلة وذلك ما أثار استغراب الناس جميعا، واعتقدوا أن الشيخ ولايت على استهوته الدنيا وهيمن عليه المال والجاه، وذهب الناس فى القالة عليه ورميه بحب الجاه والمال مذاهب شتى، ولكنه كان ينتظر انتهاء المدة بفارغ الصبر ويترقب الفرصة التى يخرج فيها من وطنه مهاجرا إلى الله ورسوله، ووصلت ساعة الهجرة فهاجر مع عدد من أصحابه المخلصين، وعلم به الناس بعد هجرته فخرجوا مهاجرين ولحقوه فى الطريق.

توجه الشيخ ولايت على إلى دهلى أولا وهو فى طريقه إلى وطن الهجرة، واستغرق سفره إليها نحو سنة ونصف ولم تخل ساعة من الهداية والإرشاد فقد كان يقوم فى السفر بإرشاد وتبليغ رسالة الإسلام وإصلاح الناس، وأقام فى دهلى شهرا كاملا يلقى فى كل

جمعة خطابا هاما، تارة فى جامع دهلى، وفى جامع فتحبورى تارة أخرى، يتناول موضوع الإصلاح والدعوة يحضره عدد كبير من الناس الذين يأتون من بعيد، ويستفيدون من كلامه ما يبعثهم على الجهاد فى سبيل إعلاء كلمة الإسلام، والنضال مع أعداء الله الذين كانوا يحكمون البلاد آنذاك ويرجعون من خطابه وقد صغرت فى أعينهم الدنيا، وحقرت زخارفها وتمثلت أمامهم الآخرة والجنة ونعيمها.

وذات يوم صادف دعوة من الملك "بهادر شاه ظفر" وعقيلته "زينت محل" فانتهز الشيخ هذه الفرصة لتوجيه الملك وإلقاء كلمة أمامه، عسى أن يكون فيها خير كثير. وأخيرا وبعد إلحاح الملك على قبول الدعوة وصل الشيخ إلى القلعة الحمراء فى دهلى، فاستقبله الملك فى ديوانه الخاص "بمنتهى الحفاوة وبالغ الكرم" وأجلسه فى مكانه بين جماعة من الأمراء والخاصة ومندوب الحكومة السامى.

وقام الشيخ ليلقى كلمة وعظ فى الديوان وقرأ الآية: "اعلموا أنما الحياة الدنيا لهو ولعب وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد.. إلخ". وفسر الآية ببيان قوى، وصور الحياة الدنيا وما فيها تصويرا اضطربت له القلوب، وأظلمت الدنيا فى أعينهم وتمثلت لهم الجنة والنار وفناء الدنيا، والموت والبعث والحساب، وكل ما يمر به المرء من مراحل دقيقة شديدة لا

محيص عنها، وعندما وصل الشيخ فى تفسير الآية إلى قوله تعالى: "وفى الآخرة عذاب شديد" همس رئيس الوزراء فى أذنه بألا يتعرض الشيخ بذكر العذاب أمام الملك، فلربما يتألم به الملك، ثم قال: قد جرت عادة العلماء أن لا يتعرضوا لهذه الأمور فى مواعظهم التى يلقونها فى البلاط أمام الملك كيلا يصيبوه بألم أو بأذى، وإنما تتناول مواعظهم ذكر الجنة فقط".

وواصل الشيخ خطابه كأنه لم يسمع كلاما، ولم يحفل بالملك وتألمه شيئا، بل وقد زاد صراحة فى ذكر عذاب القبر، وشدة يوم القيامة وعذاب جهنم، وذكر كل ذلك بأسلوب أبكى الجميع، حتى الملك لم يملك نفسه واستعبر أشد الاستعبار، ولما هدأ الملك قليلا قال الملك إننى قد عملت أبياتا [1] فى ذم الدنيا، فتلا له الشيخ هذه الآية: ﴿إذا قرئ القرآن، فاستمعوا له وأنصتوا﴾ وقال إن هذا لسوء أدب وسكت الملك ولم ينبس ببنت شفة، وأصغى إلى موعظة الشيخ، ورجع منها بعظة بالغة وتأثير عميق.

ولما انتهى الشيخ من كلامه طلب إلى الملك أن ينشد الأبيات التى قالها فى ذم الدنيا، فامتثل الملك أمر الشيخ، ثم قال لمرافقه أن يتجول بالشيخ فى القلعة ويتفرج فيها قليلا لترويح النفس ففعل المرافق وعاد الشيخ إلى مقره.

---

[1] كان الملك بهادر شاه شاعرا، له كلام جميل فى الشعر وديوان من أحسن الدواوين.

ولم يزل الملك يكرم الشيخ ويحتفى به مدة إقامته فى دهلى ولم يزل الناس يستفيدون ويتلقون منه دروسا فى الدين والعلم وتاب خلق كثير من المذنبين، والعاصين، وبايعه عدد لا يحصى كأن ريح الإيمان والتقوى قد هبت فى دهلى ونواحيها، وساد عليها جو من الدين والعلم، بعد طول العهد وطول الانتظار.

وسأل الملك الشيخ "ولايت على" عما إذا رضى بقضاء شهر رمضان فى القلعة وحضر أهل القلعة جميعا فى صلاة التراويح لكان ذلك سعادة كبرى للملك.

ولكن الشيخ عندما أوجس خيفة من بعض الأعداء رأى من المصلحة أن يسافر من دهلى بسرعة ممكنة، فاعتذر إلى الملك عن إجابته لدعوته وغادر دهلى إلى "لدهيانة" ومنها إلى "استهانة" وهنالك تحولت ثكنة المجاهدين فيها إلى مدرسة يدرس فيها علوم الدين وزاوية يشتغل فيها بتزكية النفس وإصلاح القلب.

يقول الأمير "نواب صديق حسن خان" وهو يتحدث عن موعظة الشيخ ولايت على وتأثيرها فى النفس:

إن الواقع العميق والتأثير الكبير الذى لمسته فى موعظة الشيخ ولايت على، لم أره قط فى موعظة أخرى، إن صحبته تترك القلب لا يجد لذة فى الحياة الدنيا ولا يقبل على زخارفها أبدا، وإنما هو حماس الدين ينبعث فى القلب، وقد حفظت منه صدر بيت معناه: سوف تخترع أسلوبا آخر للهيام والحب.

وأقام الشيخ فى "استهانة" ثلاث سنين، ثم أصابه داء الخناق وكتب الله له العودة إلى دار مقامه فلم يبرأ منه وتوفى بالغا من عمره "أربعا وستين سنة" بعدما تحققت له أمنية الهجرة، والكفاح فى سبيل الدين، ورفع راية الإسلام خفاقة عالية فى الآفاق.

إن أسرة الشيخ ولايت على التى تعرف بأسرة صادق بور من أتباع الإمام السيد أحمد الشهيد المخلصين، وخلفائه الذين ورثوا عاطفة الجهاد ودافع الكفاح من الإمام الشهيد وحملوا أمانة العلم والدين، والجهاد فأدوها أحسن الأداء، وقامت هذه الأسرة بجميع من فيها من أعضاء حاملة لواء الحق والخير أحسن بلاء لم يوجد له نظير فى تاريخ من بعدهم.

وقد شهد التاريخ الإسلامى فى الهند فى هذه الأسرة رجالا لهم قيمتهم وأهميتهم وفيهم أسوة لحياة المؤمن المخلص، وقدوة لما يحمله رجال الدين والعقيدة من الثبات على المبدأ والجهاد لاسترداد الحق المغصوب، والكفاح لإعلاء كلمة الحق وتثبيت دعائمه فى الأرض التى ملئت جورا وفسادا.

وليس الشيخ ولايت على وحده الذى قام بهذه المجهود المضنية والكفاح المستمر فى حقل الدعوة والإصلاح ومواجهة الحقائق ومبارزة العدو، وإنما شقيقه الشيخ "عنايت على" ورفقته الشيخ يحيى على والشيخ أحمد الله، والشيخ فرحت حسين، كلهم ممن

يحمل فى حياته قدوة صالحة، وتاريخا حافلا بقصة الكفاح الإسلامى التى لا ينساها التاريخ على مضى الدهور ومر الأيام، وكأن القرآن يقول عنهم:

﴿فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى، بعضكم من بعض، فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا فى سبيلى، وقاتلوا وقتلوا، لأكفرن عنهم سيئاتهم، ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ثوابا من عند الله، والله عنده حسن الثواب﴾[1].

* * *

[1] استفدنا فى كتابة هذا المقال من كتاب "سيرة السيد أحمد الشهيد" للأستاذ أبى الحسن على الندوى.

(١٦)
ساعة مع الشيخ الكبير
إمداد الله المهاجر المكي

إنه رجل كبير أجمع الناس على سمو مكانته، وعلو منزلته وغلاء قيمته، رجل لم يعرف التاريخ فى عصره من تمكن من الجمع بين التفقه فى الدين وفراسة الإيمان وبين العلوم الظاهرة والعلوم الباطنة، بمثل ما مكنه الله سبحانه وتعالى منه، فقد تبوأ المنصب العالى فى الدين وتربع على عرش القيادة فى أمور الحياة فى زمنه، إنه قام بتزكية القلوب وتربية النفوس وتهذيب العقول فى جانب، ونهض يثور على الأوضاع الفاسدة ويقود جيش المجاهدين ضد الانجليز فى ساحة شاملى [١] فى جانب آخر.

فى يوم من أيام السنة ١٢٣٣هـ ـ ١٨١٤م ولد هذا الرجل العظيم الشيخ إمداد الله فى قرية "نانونة" من أعمال "سهارنفور" (ولاية أتر برديش) وهى قرية أمه، أما أسرة والده فكانت تقطن فى قرية "تهانة بون" من أعمال "مظفر بكر" وهو ينتمى فى نسبه إلى سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وقد توفيت أمه وهو ابن

---

[١] قرية بين دهلى وسهارنفور.

سبع، فتولى تربيته والده الشيخ محمد أمين، ولما بلغ السادسة عشرة من عمره توجه إلى دهلى ودرس النحو والصرف ثم قرأ علم الحديث وقد من الله تعالى عليه، ففتح عليه آفاق العلم ورزقه من فقه الدين وفهم كتاب السنة أكبر نصيب، وكان مفطورا على المعرفة والتفانى فى حب الله ورسوله، حتى انكشفت عليه أسرار الكون، وتجلت له بواطن حكمة الله وقدرته مما جعله وثيق الصلة بالله، وعميق التفكير فى خلقه، كثير الاهتمام بأمور الإسلام والمسلمين، شديد الإجلال بمكانة الرسول الأعظم، عظيم الولع بسنته.

إن العارف الكبير الشيخ إمداد الله المعروف بالمهاجر المكى لم يكن كعامة العلماء والشيوخ، ولا ممن يشغل جانبا واحدا ويترك الآخر لغيره، وإنما كان بطلا ينظر إلى الحياة بجميع نواحيها، ويدرس الأوضاع دراسة واعية لكى يعد لإصلاحها العدة الكاملة، ويبسط نفوذ الإيمان فى القلوب، ويصل بإشعاع العقيدة إلى مجتمع انحلت أجزاؤه وتفككت عراه واقتنع بالظلام وآثره على النور.

ظهر الشيخ إمداد الله على مسرح القيادة الدينية فى الهند فى زمن ثائر وفى عصر كانت البلاد ترزح فيه تحت نير الاستبداد وتختنق فى مخالب الاستعمار الإنجليزى، فكادت العقيدة الدينية تذوب فى خضم المنكرات، وكاد المسلمون ينقطعون عن تراثهم

التليد، وعن ماضيهم المشرق الوضاء، ذلك الماضي الذي قاموا فيه بدور البناء والتعمير في جميع نواحي الحياة، وأنجزوا فيه من جلائل الأعمال وعظام المآثر مالا ينساه التاريخ الإسلامي المجيد على مر الدهور والعصور.

وأراد أن يستخدم الشيخ إمداد الله لدينه، ويؤيده في جهاده بالقلوب القوية والنفوس الزكية ويرفعه إلى مكانة العز والكرامة في الدنيا والآخرة فرزقه جماعة من الرجال المخلصين والعلماء الربانيين الذين استطاع بهم أن يحدث ثورة في الوضع الشاذ المنحرف الذي كان سائداً على المجتمع الإسلامي في عصره، ويوجه الناس الخاصة منهم والعامة إلى الماضي فيذكرهم عهدهم بالعالم ويصرفهم عن كل ما ينافي شأنهم ويعارض مكانتهم الدينية.

نشط الشيخ في إعادة الروح المفقودة إلى القلوب الخامدة وإشعال الحماس الديني في المجتمع وإيقاظ الجماعة من سبات الغفلة والركود. فساعده في ذلك كبار علماء الهند مثل الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي والشيخ أحمد محمد قاسم الناتوتوي، والشيخ محمد يعقوب والشيخ الشهيد الحافظ محمد ضامن والشيخ منير أحمد الناتوتوي إلى غيرهم من العلماء الكبار.

ولم يصف للشيخ جو العمل على ما كان يريد، إذ كانت البلاد كلها تعاني وتمر بنوع من الاضطراب والانحلال، وكان

الشعب الهندى والمسلمون خاصة، يواجهون قلقًا شديدا من الحكومة الإنجليزية المحتلة، لا يسمح لهم بعيش هادئ وحياة مطمئنة، وإنما كان الظلم والإرهاب والخسف والاستعباد يعمل عمله فى المجتمع بطريق مدهش وأسلوب شنيع، حتى إذا طفحت الكأس وعيل صبر الناس بدا لهم الثورة على الحكومة المحتلة، والقضاء على كل نأمة فساد تريد أن ترفع رأسها.

وجاء عام ١٨٥٧م الذى اتفق فيه الشعب الهندى على الثورة والجهاد، وسارت فيه حركة الثورة كسير التيار الكهربائى فى الأسلاك وقامت البلاد كلها صفًا واحدا على الإنجليز وعلى رأسها العلماء الربانيون والرجال المخلصون الذين رفعوا راية الجهاد ضد الاستعمار الغاشم وأشعلوا الشعب ثورة، وشحنوه بدافع الجهاد والقتال حتى عمت الثورة فى أنحاء البلاد كلها واشتعلت نارها فى كل القلوب وقامت مناوشات حربية ومعارك دامية بين الانجليز والمسلمين ساهم فيها المسلمون والمواطنون أيضا، وقاد العلماء معركة الجهاد فى كل مكان، فكانت ثورة عظيمة عرفت بثورة ١٨٥٧م.

واستطاع العلماء فى الهند وفى مقدمتهم الشيخ إمداد الله أن يؤسسوا مراكز الثورة والثوار فى مختلف أنحاء البلاد. ويشنوا منها الغارة على المستعمر المحتل، أما قرية تهانه بيهون فقد كانت تؤدى دورا هاما فى حرب التحرير واستقلال البلاد إذ

كانت موطن الشيخ إمداد الله ومقره الذى أصبح بحكم الظروف مركز القيادة والإدارة للبلاد كلها، جلس الشيخ فى هذه القرية الصغيرة فى زاوية متواضعة، وأعلن الجهاد على الإنجليز والقضاء على حكمه فى الهند، وأصدر تعليمات هامة عن هذا الجهاد وكونه واجب الساعة على المسلمين والعلماء خاصة.

ونال الشيخ تأييدا ضخما من العلماء، وفعلا صحبوه فى تقديم أمر الجهاد وقدموا إليه مساعدات غالية من الأنفس والأموال فأقام معه الشيخ محمد ضامن شهيد معركة "شاملى" والشيخ محمد التهانوى، أما الشيخ رشيد أحمد الكنكوهى والشيخ محمد قاسم الناتوتوى فكانا يختلفان إليه ويزورانه حينا لآخر، يتحدثان معه فى أمر الجهاد وإعداد العدة له، وتحريض المسلمين عليه.

وبذل الإنجليز جهدهم فى إخفاق الثورة، ووقف هذه الحركة واشتروا تأييد بعض المواطنين من المسلمين والهندوس بثمن قليل أو كثير كما هو دأب الإنجليز فى كل مكان، فبدأ يلقى القبض على الرجال البارزين ويأسر الزعماء والمصلحين ويزجهم فى السجون، كما ألقى القبض على آخر ملوك المغول بغادر شاه وأودعه هو وزوجته فى معتقل رانجون فكان قضاء على حكم المغول فى الهند.

ونجح الشيخ إمداد الله ورفقته من العلماء من تعميم حركة

الجهاد وحرب التحرير وتأسيس دولة يلجأون إليها فى قضاياهم وأمورهم، مقاطعين حكم الإنجليز وقضاءه واتفقوا على قيادة الثورة والقتال ضد الانجليز.

واجتمع جيش المسلمين فى "تهانه بهون" وبدأ ينتظر إذن الجهاد والسير لساحة القتال واختير الشيخ إمداد الله قائد الجيش وأمير الجهاد.

وبينما المجاهدون فى انتظار أمر القائد للإغارة على مراكز العدو إذ فوجئوا بنبأ أن الإنجليز ينقلون مدافعهم من تهانه بهون إلى شاملى التى كانت ثكنة الإنجليز ومركزه الحربى فى تلك الأيام.

وتوجه الشيخ رشيد أحمد بكتيبة من الجيش إلى مكان حريز ليرصد الإنجليز إذا مروا بذلك المكان ويغير عليهم، وعندما مر العدو ومعه مدافعه أغارت عليه كتيبة الشيخ رشيد أحمد وهرب العدو تاركًا مدافعه وأسلحته وأخذها المسلمون كغنيمة.

وشن المجاهدون من العلماء حربًا شديدة على مراكز الإنجليز فى شاملى وقاتلوا قتالا مريراً، وثبتوا فى حملاتهم بقلوب مؤمنة ونفوس قوية، وإذا بالعدو يهاجم المجاهدين هجومًا شديداً ويمطر عليهم الرصاص ويطلق عليهم النار إطلاقًا مستمراً حتى أصيب الشيخ ضامن على برصاص نفذ فى بطنه وسقط شهيداً، وهنالك شجع جيش العدو وبدأ يحمل على المسلمين حملات

مستمرة ولقى المسلمون هزيمة بعدما أصابوا العدو بخسائر كبيرة من الأموال والأرواح.

واخفقت ثورة ١٨٥٧م وكانت مأساة التاريخ الإسلامى فى الهند وطفق الإنجليز بسط نفوذه فى أنحاء الهند كلها، ويصيب المسلمين بأنواع من الأذى، وصنوف من التنكيل والتشريد، وصدر الأمر بإلقاء القبض على الشيخ إمداد الله ورفقته، فالتجأ إلى بعض أصدقائه وسافر إلى كراجى مهاجرًا إلى مكة المكرمة حيث آثر الإقامة واستوطنها.

ولم تنقص عنايته بأمور المسلمين فى الهند واهتمامه بقضاياهم فكان دائم الاطلاع على أحوالهم، يبعث لهم اقتراحاته ويبحث لهم عن الطرق التى تؤديهم إلى الغاية، والأساليب التى تضمن لهم النجاح فى حركة الاستقلال والتحرير.

ورأى الشيخ إمداد الله أن المسلمين بعد إخفاق الثورة فى أشد حاجة إلى معقل ليلجأوا إليه ويستمدوا منه ما يفيدهم فى دينهم ودنياهم فاقترح على رفقته وأصحابه فى الهند تأسيس معهد دينى كبير يقوم بتربية المسلمين وتزويدهم بأكبر قسط من الوازع الدينى مع الوعى السياسى الذى إذا تجرد منه المسلمون يخفقون فى معركتهم مع الإنجليز واستعادة حقوقهم منه.

فاسسوا معهد ديوبند الكبير الذى لم يكن مدرسة تدرس فيها العلوم الدينية فحسب وإنما كان قبل كل شىء معقلا منيعًا

للمسلمين لتربية النشء الجديد على حب الدين ومعانى العزة والفتوة وتثقيفهم بالثقافة الدينية مع الاطلاع على السياسة الموجودة التى لا غنى عنها للعلماء وخاصة فى ذلك العصر.

يقول الأستاذ الكبير السيد أبو الحسن على الندوى فى كتابه الجديد "الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية" وهو يتحدث عن القيادة الدينية فى الهند.

وكان لا ينظر إلى المؤسسة التى ساهم فى تأسيسها وقادها فى حياته كمعهد يقوم بتدريس العلوم والمواد الدراسية وتخرج الفقهاء والمعلمين فحسب، بل كان ينظر إليه كمركز وثكنة تخرج المكافحين والدعاة الذين يفتحون جبهة جديدة للكفاح بعدما لقى المسلمون الهزيمة المنكرة من الإنجليز المحتلين وانقرضت الدولة الإسلامية من الهند.

ومما لاشك فيه أن هذا المعهد قد أدى دورًا فى هذا المجال وحقق الهدف المنشود إلى حد كبير، وقد أسهم بناؤه فى السياسة الوطنية وفى حرب التحرير إسهامًا لا يستهان به، وكان لهم أعظم نصيب فى إنقاذ البلاد وتحريرها من يد الاستعمار الإنجليزى وتثبيت دعائم الحكومة القومية فيها.

إن لجهود الشيخ إمداد الله المكى آثارًا باهرة من العلم والدين وخدمة الإسلام والمسلمين فى هذه البلاد، إنه استطاع بجهوده المخلصة وجهاده الرائع وفضل ورعه أن يؤسس للمسلمين

حياة الإيمان والتقوى.

ويبعث فيهم روح الجهاد والعمل، ويمهد لهم السبيل للوصول إلى ما فيه رضاء الله ورسوله، ويفتح لهم كوة النور بعد ليل مظلم طويل ويريهم على معنى أن الحياة إنما هى كفاح مستمر وجهاد متواصل.

أما مكانته الروحية التى احتلها فقد كانت رفيعة إلى أن لم يلحق غباره أحد فى عصره، وإنما رفعه الله فى ذلك على معاصريه من العلماء والشيوخ ورزقه من الفضل والتوفيق ما تمكن به من قلب الأوضاع الفاسدة والثورة عليها وصون المجتمع الإسلامى من غزو المسيحية وضروب الإلحاد التى برزت منذ احتلال الإنجليز فى هذه البلاد وانتشرت باستيلائه على زمام الحكم فيها.

وتمتع الشيخ إمداد الله بقبول عام فى أوساط العلماء والشيوخ بفضل معرفته وغزارة علمه، فقد تبوأ منصب القيادة الدينية والتوجه الإسلامى فى حين كانت الأمة الإسلامية ترزح تحت نير الاستبداد والاستعمار، وكان الجو مكفهراً إلى حد أنها لم تكن تستطيع رفع رأسها إلى فضيلة أو تطمح إلى قيادة وإنما كانت تعانى أنواعًا من الظلم والاضطهاد وألوانًا من التشريد على يد الحكومة الإنجليزية.

وأراد الإنجليز سد هذا الباب، باب الإصلاح والإرشاد الذى فتحه الله على الشيخ إمداد الله واكتاد له بكل الوسائل من

الإرهاب والتهديد، لأنه رأى فيه خطراً على حكومته وعدواً لسلطته وخصما لسيطرته فبذل جهوداً كبيرة فى إطفاء هذا النور وإسكات هذا الصوت، ولكن الله أبى كل الإباء إلا أن يستمر الشيخ فى نشر دعوته وبسط نفوذه، بالرغم من جميع المحاولات التى يقوم بها الإنجليز.

وأخيراً اضطرته الأوضاع والظروف التى أحاطت به إلى أن يهاجر من الهند، ويتخذ حرم الله وجواره ملجأ لدعوته ومجالا لجهاده وكنفًا لنفسه، وذلك لما كان يتصل بعتبة الرسول العربى ﷺ، اتصالا وثيقًا ويتمسك بسنته وتعاليمه تمسكًا كبيراً، وقد أشرب فى قلبه حب الله ورسوله، فرزقه الله من فهم الدين الصحيح قسطًا كبيراً ومنحه الله من قوة الإيمان ولوعة الحنان ما تذوب أمامه العقبات وتتلاشى إزاءه المشكلات والملابسات وترتعد له الجبال الراسيات، الإيمان الذى تدخل بشاشته القلوب فتصنع المعجزات وتأتى بالعجائب.

ومنهجه فى الإصلاح والتربية لم يختلف كثيرا عن سلفه من العلماء والعارفين غير أن الظروف التى واجهت المسلمين فى زمنه جعلته يراعيها كل الرعاية فى التربية والإصلاح لتثمر جهوده أينع الثمار وتؤتى أكلها كل حين، إنه درس الوضع السائد على المجتمع الإسلامى ورأى من خلاله بمنظار الإخلاص والإيمان، فوجد أن المجتمع فى حاجة ملحة إلى فهم عقائد الدين ودراسة

تعاليم الكتاب والسنة وذلك لأن الإنجليز أمة مثقفة لا تقيم لأى أمة غيرها وزنا، ولا ترى لها حقا فى مجال الحكم والسياسة.

فإذا ما استبقى المسلمون على حالهم من الجهل والأمية لا يكادون ينجحون فى إقامة المجتمع الإسلامى على أساس الدين والتخلص من عار العبودية وذل الأسر للمستعمر الغاصب.

وبذل جهده فى توجيه المسلمين إلى زيادة ثقافتهم الدينية وإعادة الروح الإسلامية إلى جسم المجتمع عن طريق التعليم والثقافة، وأراد أن يعم هذا الاتجاه ليعم فهم الدين الصحيح ويتخلص المسلمون عن مركب النقص، فيخرجوا عن كل ما يواجههم من الضعف فى العقيدة والوهن فى الإيمان. ونشأ جيل من العلماء الربانيين والعارفين المخلصين على يده فنهجوا فى الإصلاح والتربية منهجه، واتخذوا أفكاره وآراءه فى التوجيه والإرشاد ونشروا دعوته وبثوا تفكيره فى الأوساط العلمية والدينية.

وكانت مدرسة ديوبند النواة الأولى لجهاد هؤلاء المخلصين وتحقيقا لحلم من أحلام الشيخ إمداد الله التى راوداته منذ نعومة أظفاره.

وعلى أثر ما تأسس معهد ديوبند الكبير زار الشيخ أحد أتباعه من العلماء فى مكة المكرمة بمناسبة موسم الحج، فقال له:

لقد أسسنا فى ديوبند مدرسة، نسألك لها الدعاء، فرد عليه

الشيخ قائلا : سبحان الله، تقول أسسنا مدرسة فى ديوبند وما يدريك كم من قلوب تضرعت أمام الله تسأله بقاء هذا الدين فى بلاد الهند، وما هذه المدرسة إلا ثمرة هذه الأدعية والضراعة.

إن هذا الرد إنما يشير بكل وضوح إلى أن الشيخ إمداد الله كان يتمنى من أعماق قلبه أن تكون للمسلمين مؤسسة دينية تقوم بتوجيه المعارف الدينية إلى المسلمين، وتدعوهم إلى الاشتغال بدراسة الإسلام وتعاليمه وذلك لأنه ما كان يرى للإصلاح والتربية طريقا أكثر تأثيرا وأعمق نفوذا غير هذا الطريق بحكم الأوضاع التى كانت تسود على البلاد والظروف التى عاش فيها المسلمون حينئذ.

أقام الشيخ من أجوائه دروسا للحكمة والإيمان، وقد أفاد خلقا كثيرا واهتدى به عدد كبير واختاره الله سبحانه وتعالى لخدمة دينه وتربية أمته فى أرض الحجاز ورحاب بيت الله الحرام وتلك سعادة لا تعدلها سعادة.

إن الشمعة التى أضاءها الشيخ فى الهند لا تزال تنير للمساكين طريقهم وتضىء للطالبين غايتهم وهى لا تزال تقاوم العواصف الهوجاء وتبارز الأعاصير الظلماء على مر الأيام والعصور.

كما أن مأثرته التى قام بها وحده فى أرض الحجاز لا تنسى، فكم من قلوب فتحها للإيمان، وكم من عقول صقلها بالعلم

والعرفان وأثار فى المجتمع الإسلامى العربى الغيرة على الدين ودوافع التضحية والفداء فى المسلمين ولفت أنظارهم إلى فهم الدين الصحيح والعمل به.

وذلك لكى ينالوا ما وعدهم الله ورسوله.

توفى الشيخ إمداد الله فى شهر جمادى الثانية سنة ١٣١٧ بعد ما عاش أربعا وثمانين سنة يخدم الإسلام والمسلمين بنفحاته القدسية ونفثاته المكية، وقضى أربعين سنة منها بجوار الحرم فى مكة المكرمة وزاد إلى صفحات التاريخ صفحة مشرقة بيضاء.

هذا وقد نالت حركة ندوة العلماء تأييد الشيخ إمداد الله وإعجابه بالفكرة التى تبنتها وكان بينه وبين أعضاء الندوة اتصال وثيق جعلهم يعتبرونه مشرفا خاصا على هذه الحركة واطلع على بعض التقارير وإجراءات ندوة العلماء فى مكة فزينها بتوقيعه الخاص.

* * *

(١٧)
ساعة مع الشيخ محمد قاسم النانوتوى

إذا تساءلنا من هو الرجل الذى نهض فى القرن المنصرم ببناء تاريخ المسلمين الثقافى فى الهند؟ وأدرك خطر الردة والإلحاد الذى أحاط بهم من كل جانب، ورأى أن الجيل الإسلامى يكاد يقع فريسة هذا الخطر فشمر له عن ساق الجد؟

وإذا تساءلنا من هو ذلك البطل العظيم الذى صمد فى وجه هذا الطوفان وقام سدا منيعا أمام هذا السيل الجارف، حتى دحض الباطل وانتصر للحق وصان المجتمع الإسلامى من كل خطر محدق به فى القرن التاسع عشر الميلادى.

وإذا تساءلنا من هو الشخص الذى فتح الله عليه بابا من العلم واليقين وشرح صدره لخدمة العلم والدين فى هذه البلاد عندما كان الإنجليز قد احتلها وأراد أن يحولها من بلاد المسلمين إلى مركز المسيحية والمبشرين.

إذا تساءلنا عن هذا وذاك، لكان الجواب بلا تلعثم، إنه هو الشيخ محمد قاسم النانوتوى، ذلك العالم الجليل الذى يعد فى طليعة رجال التاريخ وبناة المجد ودعاة الحق فى القرن الماضى، وقد أكرمه الله بأنواع من الكفاءات، والمواهب التى ساعدته

كثيراً فى أداء دور البطل المغامر فى معركة الحق والباطل، فبرز على مسرح التاريخ الإسلامى فى الهند كعالم كبير له يد طولى فى الدعوة والجهاد ونظرة أوسع فى دقائق العلوم، ومعارف الكتاب والسنة، وحكمة بالغة فى الجمع بين خيرى الدين والدنيا.

وقد جمع الله له مواقف محمودة فى الحياة، فوقف يخدم الدين ليذكر المسلمين ما نسوه من رسالتهم ودعوتهم وقام يتدخل فى السياسة ليرفع رأس الدين عاليًا، وتكون كلمة الله هى العليا، ويتنحى الإنجليز المحتل من سياسة البلاد فيعود الحق إلى صاحبه، ويتمكن الشعب المسلم من بناء وطنه، حسب ما يقتضيه دينه، ويدعو إليه الحال.

توسع الشيخ محمد قاسم فى أداء رسالته ما شاء الله أن يتوسع، وأراد أن يجمع المسلمين فى معقل منيع ليتسنى له شن الغارة على كل جبهة معادية للإسلام وتجميع قوة الإسلام المتشأة فى هذه البلاد فى مركز واحد، فبذل جهوده المخلصة فى تحقيق هذا الحلم، وكان الطريق ممهداً والعقبات مذللة من قبل، بفضل ما قام به الشيخ إمداد الله المهاجر المكى من جهود وجهاد فى إعادة الروح الإسلامية وإيقاظ الوعى الدينى فى البلاد، وكان العلماء يريدونه من كل جانب عمليًا، ويسهمون فى بناء ذلك المستقبل اللامع الذى يزدهر فيه التاريخ الإسلامى، وينال المسلمون من القوة والعزة ما يقاومون به كل تيار معارض،

ويستأنفون معه سيرهم الحثيث نحو المجد والكرامة.

ولد الشيخ محمد قاسم فى قرية نانوته بمديرية سهارنفور سنة ١٢٤٨ ويتصل نسبه بسيدنا أبى بكر الصديق رضى الله عنه، وقد رزقه الله من الذكاء والفطنة ما يبهر الألباب فقد كان له شأن فى الطفولة قلما يكون فى الأطفال، ويحكى لنا التاريخ أنه رأى فى صغره رؤيا تبشره بالعلم والمعرفة وقيادة العلم والعلماء.

قرأ القرآن والعلوم الابتدائية على بعض الأساتذة فى ديوبند وسهارنفور، ثم سافر إلى دهلى حيث أتم دراسة العلوم الدينية وقرأ الحديث على الشيخ شاه عبد الغنى، واشتغل ببعض الوظائف منذ خروجه من جو المدرسة طلبًا للمعاش، ولكن نفسه الطموح لم ترض بذلك وتاقت إلى مكانة أرفع وعمل يلائم شأنه، فاشتغل بالتدريس والتعليم حينًا من الزمان غير أنه لم ينل بغيته فى ذلك أيضًا بحكم منصبه الكبير الذى كان قد قيضه الله له.

واتصل بالشيخ الكبير إمداد الله المهاجر المكى أيام دراسته فرأى فيه رجلا كبيراً يحتل التوجيه والقيادة الدينية فاتخذه مرشداً فى أمور الدين، واعتبره شيخًا فى التوجيه وتزكية القلب، وبايعه على نصرة دين الله، وخدمة الإسلام واشتغل بالرياضة والمجاهدة وبذل فيهما جهوداً مضنية إلى أن أغفل نفسه ونسى كل شىء ولم يعد له أرب فى الحياة سوى العبادة والذكر والمراقبة.

وهكذا استطاع فى مدة قريبة أن يتبوأ منصب الإرشاد الدينى ويحتل مركز التوجيه ويحارب النزعات الفاسدة التى كانت تسود العقول والأذهان بقوة إيمانه وعلمه الغزير وقام يكافح ويجاهد، ونهض يعلن بصراحة سخطه على الأوضاع السائدة فى المجتمع الإسلامى آنذاك، وقد رأى أن الإنجليز يريدون صيد الشعب المسلم فى الماء العكر بقوة السيف والحديد، وقد بث دعاته ومبشريه فى المسلمين ليصرفوهم عن دينهم ويزينوا لهم المسيحية بمكائدهم ودهائهم وقد تفطن العلماء فى عصره وعلى رأسهم الشيخ إمداد الله هذه النوايا الخبيثة التى كان يضمرها الإنجليز فى نفسه فاستعدوا لمقاومته، وإحباط هذه المؤامرة التى دبرها ضد الإسلام والمسلمين فى هذه البلاد.

ولما رأى الإنجليز أن العلماء يقودون الشعب المسلم لمقاومة التبشير المسيحى ويريدون عرقلة سيره قاموا بجهود مضاعفة لإنجاز مهمتهم ومحو قداسة الإسلام وعظمته من القلوب، وزعزعة عقائد الشعب المسلم، وإعشاء بصره ببريق الحضارة الغربية المادية، إذ كان الإنجليز قد أيقن أنه لا يستتب له أمر الحكم والقيادة فى هذه البلاد ما دام المسلمون راسخى العقيدة أقوياء الإيمان متمسكين بشعائر دينهم، فتقدم بسير حثيث نحو هدم صرح الإسلام، وقطع علاقة المسلمين عن تراثهم المجيد ودورهم الذى مثلوه على مسرح القيادة العالمية.

وقام الإستعمار الإنجليزى بجميع ما أوتى من دهاء وقوة لنشر رسالته وكاد يقضى على العاطفة الدينية والوعى الإسلامى ويحرم المسلمين منبع قوتهم ومصدر نهضتهم لولا أن جهود العلماء وجهادهم حال دون ذلك، وأبطل عزيمته.

عصر الاستعمار الإنجليزى كل قوته فى نشر التعليم الغربى فى المسلمين وردهم من الإسلام إلى المسيحية واستجلب عدداً ضخمًا من المبشرين المحترفين الذين انبثوا فى المدن والقرى وبدأوا يغرون المسلمين بأنواع من الإغراء والإغواء وكان ذلك أقوى سياسة قام بها الإنجليز لتنصير الشعب المسلم، ولكن رد العلماء المخلصون هذه السياسة الماكرة بكل قوتها ، على رأسهم الشيخ النانوتوى الذى كان يؤم كل قرية أو مدينة يخيم فيها المبشرون لتبليغ دعوتهم، فيناظر معهم أمام جمع من الناس، ويهزمهم بدلائل قوية، وحجج لا يسعهم إنكارها.

واستمر فى كسر شوكة المبشرين، وقطع أملهم عن نجاح المهمة التى جاءوا بها حتى يئسوا عن التبشير، ورأوا أن تربة هذه البلاد لا تصلح للبذرة التى بذروها وسوف لا تؤتى لهم أكلا، وقد اعترفوا بفضل الشيخ النانوتوى وغزارة علمه وتعمق نظرته وتوسع معلوماته وقالوا بصراحة:

لقد اتصلنا بكثير من علماء الإسلام وسمعنا كلامهم وتحدثنا معهم غير أن الذى رأيناه فى الشيخ قاسم النانوتوى وجربنا فيه

إنما هو شيء لم نعرفه في غيره من العلماء.

ولم يكتف الشيخ محمد قاسم برد شبهات المبشرين التي أثاروها حول الإسلام وقصدوا بها اقتناص المسلمين ولم يقتصر بدحض أباطيلهم فحسب وإنما قام بمناظرات مع الطائفة الآرية [1] التي لم تقم أمام الشيخ وهربت منه دائمًا مخافة أن تفضح في دعايتها الكاذبة وتفقد أنصارها وأعوانها بدلا من أن يقع فريستها المسلمون، وللشيخ في هذه الناحية مواقف غراء كثيرة معروفة في التاريخ، وله فيها حكايات عجيبة تقع من النفوس كل موقع، وبخاصة نالت مناظرته مع الباندیت ديانند في مدينة "رزكي" شهرة عظيمة فقد كانت مناظرة حاسمة أسفرت عن هزيمة الباندیت وفضيحته في إثبات دعواه.

وقاد العلماء حركة التحرير والثورة على الحاكم الإنجليزي إذ رأوها الطريق الوحيد للتخلص من ربقة الاستعمار الغاشم، وعمت هذه الحركة في جميع أرجاء الهند، وانضوى تحت لوائها المسلمون كلهم.

واستهل عام ١٨٥٧ بتذمر عام على الحكم الإنجليزي فنهض المسلمون وفي مقدمتهم العلماء بثورة عارمة على الاستعمار وحرب شاملة ضده، وكان الشيخ محمد قاسم النانوتوي قائد

---

[1] طائفة من الهندوس قادها الباندیت ديانند في عصر الشيخ وهي أشد عداء للإسلام.

قوات المسلمين فى ساحة "تهانة بهون" و "شاملى" حيث وقعت معركة حاسمة بين المسلمين والإنجليز وقد أبلى الشيخ فى هذه المعركة بلاء حسنا سجله التاريخ بحروف ذهبية.

وأخفقت ثورة ١٨٥٧م لأسباب مؤسفة ترجع إلى بعض المنافقين واستطاع الإنجليز أن ينتقم من المسلمين بطرق شتى فركز جهوده فى تنصير المسلمين وردهم عن الإسلام من طريق التعليم المادى ونشر الحضارة الغربية والمدنية الأوربية، وغزا بهذه الأدواء عقر دارهم، مصمما على تحويل الأمة الإسلامية فى هذه البلاد إلى أمة هندية الصورة غربية الطبعة والتفكير، واستخدم جميع وسائل الإغراء والتضليل فى ذلك بالزيادة إلى تشتيت شمل المسلمين وتوزيعهم فى فرق متعددة وأحزاب مختلفة متعادية.

ولم يعد للمسلمين طريق سوى أن ينضموا إلى معسكر الإنجليزى أو يشقوا لهم طريقا ينقذهم من أساليبهم الماكرة ويضمن لهم الثبات على دينهم، والبقاء على الملة الحنيفية البيضاء، فبدأ العلماء وعلى رأسهم الشيخ النانوتوى بحركة عامة لنشر التعليم الدينى والثقافة الإسلامية فى المسلمين ورأى أنه هو أقوى سلاح فى وجه الاستعمار الإنجليزى.

وتبنى الشيخ محمد قاسم النانوتوى فكرة تأسيس مدرسة كبيرة فى ديوبند لتكون معقل المسلمين الدينى، ومركز توجيه الشعب المسلم، فبدأ بمدرسة فى أحد جوامع ديوبند كانت نواة جامعة

ديوبند الكبرى، التى تأسست على مبدأ الإخلاص والإيمان، فتوسعت فى مراميها وأهدافها التى قامت لأجلها وتزعمت توجيه المسلمين الدينى والفكرى ولا تزال.

ولمدرسة ديوبند فضل كبير فى تمسك الشعب المسلم الهندى بالفكرة الإسلامية والعقيدة الدينية وتفانيه فى سبيل الإسلام، وقد تخرجت فيها جماعة كبيرة من الشيوخ والعلماء الذين كانوا منارة ضوء للجيل الإسلامى عندما أظلمت أمامه الطرق، وسدت عليه المنافذ، كما أسهم أبناء ديوبند فى حرب التحرير الوطنى وقادوا حركة الاستقلال، ولا يزال لهم نشاط فى صالح الوطن.

هذا وللشيخ محمد قاسم مآثر كثيرة فى بناء مستقبل المسلمين الدينى فى هذه البلاد وله أياد نقية بيضاء على الشعب المسلم لا يتخلى عنها لمحة واحدة، وهو الذى مهد له السبيل وفتح له الطريق، وأنار له التفكير، وأنقذه من بلاء المستعمر الغشوم، وضمن بقاء الإسلام والإيمان فى الهند بما قام به من جلائل الأعمال وخوالد الخدمات وثوابت المآثر.

وله مؤلفات عديدة وبديعة تدل على توسع علمه، وعمق تفكيره منها "تقرير دلبذير" "آب حيات" "انتصار الإسلام" "تحذير الناس". وقد توفى يوم الخميس ٤ من جمادى الأولى سنة ١٢٩٧ فرضى الله عنه وأرضاه.

* * *

(١٨)
ساعة مع الشيخ الربانى
رشيد أحمد الكنكوهى

إنها لفرصة سعيدة إذ أتحدث عن الشيخ الربانى رشيد أحمد الكنكوهى، ذلك الشيخ الجليل الذى خلد مآثره تاريخ الهند الدينى، واحتفظ بمفاخره الشعب الإسلامى جيلا بعد جيل، وأقام حوله ذكريات من العلم والعمل، والخدمة والجهاد، ذلك العالم المجاهد الذى انتصر للدين، وجاهد فى سبيله حينما كان الجو مكفهراً، وكان النطق بالحق تغريراً بالنفس والمال، ذلك البطل المغامر الذى خاض لجة الأخطار فصادف ما يكفى لتثبيط النفس، وانحلال العزيمة والاعتراف بالضعف والذل، ولكنه قام فى وجه كل مصيبة سدا، وقاوم كل خطر ومحنة بنفس مطمئنة، وعزم أكيد وإيمان راسخ، فأصلح الأوضاع والنفوس فى جانب، وحارب النزعات الفاسدة والحكومة المحتلة فى جانب آخر.

ليست حياة الشيخ رشيد أحمد حياة عالم كبير، أو حياة شيخ جليل فحسب، وإنما هى قبل كل شىء حياة جندى فى ساحة الحرب، يحارب عدوه وفاء للحق، مدافعًا عن دينه ووطنه، مناضلا لاستعادة المجد والكرامة اللذين قضى عليهما العدو

المحتل فاسترق الأحرار الأبرار، وتربص بهم الدوائر، ليسهل له استغلال أرضهم واستعباد نفوسهم، والعبث بحريتهم والسخرية من مصابهم.

وهو عالم جليل الشأن، عظيم المنزلة، رفيع المكانة لم يدانه في غزارة مادته وتوسع آفاقه، ونفاذ بصره إلا قليل من العلماء، وله في المجال العلمي خدمات ضخمة ومآثر جليلة لا تنسى على مضى الأيام وانقضاء الزمان.

ولد الشيخ رشيد أحمد سنة ١٢٤٤هـ قبل وقعة بالاكوت المشهورة في تاريخ الجهاد الإسلامي بالهند بسنتين، في قرية "كنكوه" التي تبتعد ١٦ ميلا عن سهارنفور وهي قرية عرفت منذ قديم بمواطن العارفين الكبار ومولد العظام من رجال التاريخ، ويتصل نسبه بسيدنا أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه، وقد توفي والده وهو صغير لم يتجاوز السابعة من عمره، فتولى تربيته وتعليمه جده الشيخ بيربخش وأمه المؤمنة بذلت جهودا مخلصة في تربيته ودراسته الدينية حتى نشأ ولدا نجيبا، مرهف الشعور، ذكي الفؤاد، نافذ البصيرة، ولما أتم دراسته الابتدائية حنت نفسه إلى تعلم العلوم الدينية فدرس كتب النحو والصرف على الشيخ محمد بخش الرامفوري في رام فور.

وعندما بلغ السابعة عشرة من عمره توجه إلى دهلي حيث اشتغل بطلب العلم على أساتذة العلم مثل الشيخ مملوك علي،

وقيض الله له زميلا مخلصا وأخا وفيا ليكون له عونا ورفيقا يستوحى كل واحد من الآخر روحا ونشاطا فى سيرهما العلمى وهو الشيخ محمد قاسم النانوتوى الذى تحدثنا عنه فى المقال السابق، وقد عرف هذان الزميلان فى الأوساط العلمية بدهلى بذكائهما ومؤهلاتهما وكفاءاتهما العلمية، وأصبحا مضرب المثل لدى العلماء والطلاب.

أما الحديث الشريف فقد قرأه على الشيخ عبد الغنى ابن أبى سعيد بن صفى القدر بن عزيز محمد عيسى بن سيف الدين ابن محمد معصوم السرهندى، فضرب بسهم وافر فى هذا الفن وتعمق نظره فيه، وتوسعت معلوماته حتى أصبح من كبار علماء الحديث وعرف بالانهماك فيه، والنزول إلى أعماقه، والخوض فى معانيه، والتف حوله طلبة العلم ليأخذوا منه هذا العلم، وكل من سنحت له فرصة الاستفادة من علمه وحضر دروسه التى كان يلقيها، عد ذلك مفخرة كبيرة ورآها سعادة لا تعادلها سعادة.

ولما أتم الشيخ رشيد أحمد دراسة العلوم الظاهرة أقبل على اكتساب ما يصلح الباطن ويعمل فى القلب فينوره ويزكيه ويجعله يتقرب إلى الله سبحانه وتعالى ويتصل به اتصالا مباشرا لا يعوقه شىء من أمور الدنيا، دارت هذه الفكرة فى رأس الشيخ رشيد أحمد فأقلقته، وعكرت عليه صفو الحياة فقام يبحث عن شيخ يشفى غليله، ويأخذ بيده فى هذه الحيرة. وبينما هو كذلك إذ

هداه الله إلى الشيخ الكبير إمداد الله المهاجر المكى، فبث إليه شوقه وسأله المبايعة على الإيمان والحق، والانتصار لدين الله. ولكن الشيخ إمداد الله أبى أول الأمر لما رآه يتبوأ منصبا أعلى فى الدين والعلم، ثم أجاب طلبه بعدما ألح عليه الشيخ رشيد أحمد، وشفع له الشيخ ضامن على.

وتم أمر البيعة فبدأ الشيخ ينظم حياته للاشتغال بذكر الله، والإقبال عليه بقلب تملؤه الخشية، ونفس يعلوها التواضع والخضوع أمام الله، وما هى إلا عدة أيام حتى تغيرت حاله، وتدرج إلى منزلة عليا فى الإحسان والاتصال بالله واستمر فى تزكية النفس نحوا من أربعين يوما بإشراف الشيخ إمداد الله، حتى آن له أن يغادر زاوية الشيخ إلى وطنه ويحرر شهادة الإجازة بما قال له الشيخ "إذا سألك أحد المبايعة فلا ترده".

ورجع الشيخ رشيد أحمد يحمل فى جنبه نعمة الورع والتقوى، التى لا تتيسر إلا بعد جهود مضنية، ومجاهدات طويلة، ولكن الله تعالى أنعم عليه فوفقه إلى اكتساب هذه النعمة فى مدة قليلة لا تزيد على شهر ونصف، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

وبدأ الشيخ رشيد أحمد يقضى جل وقته فى الذكر والمراقبة والعبادة والتلاوة فغشى جو القرية نوع من الخشوع والإنابة وخفت صوت المنكر شيئا فشيئا، وتضاءلت نزعة السوء، واتجه

الناس إلى إصلاح أحوالهم، فراجعوه وطلبوا منه الإسعاف في أمرهم، وألقى الله في روعه أن يقبل طلبهم، ويقبل على إصلاح الأحوال والأوضاع فسينتج ذلك خيرا كثيرا، وينفتح على يده باب العز والسعادة والأمن والسلام.

وجلس الشيخ طبيبا يداوى المرضى ليسد به ضرورات المعاش ومطالب الحياة وكان لطبه تأثير كبير، واتخذ أسلوبا سهلا في العلاج إذ كان يصف للمرضى دواء رخيصا، ربما يوجد في بعض نواحي القرى بدون أن يكلف المريض نفقة، وسرعان ما يعود المريض صحيحا معافى.

هذا وقد بذل جهودا في حقل الإصلاح الاجتماعي وكافح قوى الشر والطغيان وأضاء للناس سبيل الحق والهداية فاهتدى به عدد كبير إلى الطريق المستقيم، وعرفوا معنى الحياة وغاية العيش في الدنيا وعلموا أن النجاح معقود بعمل الإنسان، فإذا ما كان العمل صالحا، والنية مخلصة كان النجاح مؤكدا والإنسان هو نفسه مسئول عن العقاب والثواب وهو الذى يختار لنفسه الطريق، فإما إلى الجنة أو إلى النار.

وهكذا استطاع الشيخ رشيد أحمد أن يهدم البناء الفاسد ويشيد صرح العدالة والحق عاليا، أينما رأى المنكر ثار عليه وقاومه بما أوتى من قوة، عملا بما قال الرسول ﷺ "من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه،

وذلك أضعف الإيمان" وأسهم فى ثورة ١٨٥٧م إسهاما لا يستهان بقيمته، وحارب ضد الإنجليز انتصارا للحق وإنقاذا للشعب الهندى والمسلمين خاصة من جحيم العبودية وعذاب الرق.

وعندما هدأت عاصفة الثورة، وأخفق أهل البلاد فى القضاء على الحكم الإنجليزى، أصدرت حكومة الإنجليز تعليمات حول إلقاء القبض على الثائرين وعلى كل من تزعم الثورة لتقضى عليهم بالرصاص أو الشنق أو النفى أو الحبس، ولأن الشيخ رشيد أحمد والشيخ الحاج إمداد الله والشيخ محمد قاسم كلهم تزعموا حركة الجهاد والثورة على الإنجليز غضبت عليهم الحكومة وبثت رجال الشرطة للبحث عنهم وأسرهم.

وأعلنت الحكومة جائزة كبيرة لمن دل على هؤلاء، وساعد الحكومة فى إلقاء القبض عليهم، وأخيرا نجحت الشرطة فى أسر الشيخ رشيد أحمد، وزوجته فى السجن، وقد رأت فيه الحكومة البريطانية أكبر عدو لها فحاكمته محاكمة شديدة، وذات مرة قال له الحاكم فى المحكمة أنت تعيث فى البلاد فسادا وتصحب المفسدين، فأجابه الشيخ: لست مفسدا ولا أصحب المفسدين كما تزعم، ثم قال: عندك السلاح تستعمله ضد الحكومة، فأراه الشيخ سبحته وقال هذا هو سلاحى.

وما زال الشيخ يعانى شدة الحبس، وإرهاق الحكومة ويتنقل من سجن إلى سجن، وفتشت الحكومة عن أمره، ولكنها لم تنجح

في إثبات دعواها، وتبرير موقفها من الشيخ فاضطرت إلى الإفراج عنه، وخرج الشيخ رشيد أحمد من يد العدو مبجلا مكرما استقبله الناس أحر أستقبال ورأوا فيه رجلا كبيرا، وقائدا عظيما، يستطيع أن يقود المسلمين، ويرشدهم إلى ما فيه الخير والصلاح.

واتخذ الشيخ في السجن أسوة سيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام فاهتدى به عدد كبير من المسجونين، وتابوا وأنابوا إلى الله، وأخلصوا دينهم وإيمانهم لله وتزاحم عليه الناس منذ خروجه من السجن يسألونه إصلاح الأحوال والمبايعة على الإيمان والاستماتة في سبيل الله، ولما رأى إقبال الناس عليه قام بإصلاح عام وشامل عن طريق الدعوة والتعليم.

وقبل الإشراف على مدرسة ديوبند فكان عدد من الطلاب المتخرجين يحضر لدى الشيخ ويدرس عليه علوم الدين من القرآن والسنة، ويعد الرجال لقلب الأوضاع الفاسدة، وتغيير الأحوال السيئة التي كان المسلمون يجتازونها في ذلك العهد فنشأت بفضل الشيخ جماعة كبيرة ممن جمعوا بين العلم والدين، ودافع الجهاد وإصلاح الأوضاع وأصبحت مدرسة ديوبند بمثابة ثكنة يتخرج منها العلماء والمجاهدون والعارفون والمصلحون.

ورفع الله الشيخ رشيد أحمد إلى مكانة عليا من العلم والدين والإخلاص، ورزقه من القبول والحظوة مالم يرزق كثيرا من كبار

العلماء والعارفين، وقد منحه من التأثير والبركة ما يتعذر نظيره في عصره وما بعده، ولذلك فقد كان الرجل يحضره فارغا عن كل شيء ويرجع بإيمان قوى وإخلاص ودين، واعترف بفضله وعلو منزلته شيخه الكبير الحاج إمداد الله، يروى أنه بعث إليه رجلا ممن بايعه، وقد مر عنده بمراحل الرياضة، والمجاهدات، ولكنه لم ينل بغيته على ذلك، فكتب إليه الشيخ إمداد الله: إن هذا الرجل ممن بايعنى وأقام عندى مدة يشتغل فيها بالرياضة والمجاهدات غير أنه لم ينتفع بشيء منها، ولم أطلع على موضع الضعف فيه، فأبعثه إليكم عسى أن ينفع بكم، وجاء الرجل فسأله الشيخ عن مهنته، فقال إن لى شغفا بدارسة الكتب الدينية وهنالك عرف الشيخ ما ينبغي أن يأمره به، فقال له: أمسك عن دراسة الكتب وخذ نصيبك من الذكر والمراقبة وفعل الرجل فسرعان ما تغيرت حاله، ووصل إلى مرامه.

ويقول الشيخ إمداد الله اعترافا منه بعلو مكانة الشيخ رشيد أحمد: "أقول للذين يحبوننى إن الشيخ رشيد أحمد والشيخ محمد قاسم يفوقاننى فى العلوم الظاهرة والباطنة فليعدوهما أفضل منى، فقد كان ينبغى أن يكونا فى مكانى من الهداية والإرشاد، إذن يجب أن يغتنم الناس وجودهما فإن أمثالهما مفقودون فى هذا العهد".

ويقول فى مناسبة أخرى:

"لو سألني الله تعالى عن عملي في الدنيا لحضرته بالشيخ رشيد أحمد والشيخ محمد قاسم".

وقال مرة: "لا حاجة للناس أن يأتوني فكفى لهم الشيخ رشيد أحمد مرشدا".

وجاء رجل إلى الشيخ فضل رحمن الكنج مراد آبادى وشكا إليه ما أصاب شقيقه من مصيبة من قبل الحكومة، فقد كانت الحكومة فرضت عليه إعطاء ثلاثمائة ألف روبية كغرم مالي، وعندما سأل الرجل الشيخ فضل رحمن أن يدعو لشقيقه حتى يتخلص من هذه الورطة قال له الشيخ: اتصل بالشيخ رشيد أحمد واسأله الدعاء لأخيك، فإن خلاصه يتوقف على دعائه، أما إذا دعوت أنا وجميع أولياء الله على وجه الأرض فلا ينفعه ذلك بمثل ما ينفع دعاء الشيخ رشيد أحمد، وهو من عباد الله المقربين، وممن استجاب الله دعاءهم، وحضر الرجل الشيخ رشيد أحمد وسأله الدعاء فاستجاب الله دعاءه وتخلص أخوه المصاب.

وقال الشيخ فضل رحمن بمناسبة أخرى: "تسألونه عن الشيخ رشيد أحمد وما أدراكم ما هو؟ يزخر فيه بحر من العلوم والمعارف".

واستمر الشيخ رشيد أحمد في نشر دعوته ورسالته، عن طريق التدريس والتعليم حينا، والتربية والإصلاح حينا آخر، وقد

استخدم مواهبه وكفاءاته التى رزقها الله تعالى إياه فى خدمة دين الله، وإصلاح الناس، واعترف كبار العلماء بفضله العلمى وتفوقه فى مجال الكفاح العملى وإخلاصه واتصاله بالله سبحانه وتعالى، وذلك هو الذى رفع شأنه وأعلى مكانته وبلغ به إلى قمة العلم والمعرفة.

سافر الشيخ إلى الحجاز لتأدية فريضة الحج ثلاث مرات وعاد إلى بلاد الهند بعد تأدية مناسك الحج، واستوحى من الحرمين روحا دافعة وعاطفة جياشة واشتد اتصاله بشخصية النبى الكريم عليه الصلاة والسلام، وتمكن حبه فى قلبه، فدرج على منهجه الذى خطه عليه الصلاة والسلام، واقتفى أثره طول حياته، وركز جهوده وعنايته فى نشر تعاليم الرسول عليه الصلاة والسلام، فكان له شغف زائد بالحديث النبوى ودراسته، ونشره، ولذلك استمر إلى آخر حياته فى تدريس كتب الصحاح بدار العلوم ديوبند، وتخرج عليه عدد كبير من العلماء الراسخين ورجال الحديث ممن عرفوا بنبوغهم فى هذا الفن لدى الأوساط العلمية فى الهند وخارجها .

وفى آخر حياته هاجر إلى الحجاز، ودرس الحديث الشريف فى الحرم النبوى مدة من الزمان، وقد توفاه الله فى الثامن من شهر جمادى الآخرة عام ١٣٢٣ هجرية بعدما بلغ من العمر ٧٨ سنة و٧ أشهر و٣ أيام ودفن فى كنكوه رحمه الله رحمة واسعة.

* * *

(١٩)
ساعة مع الشيخ محمد يعقوب النانوتوى

أريد أن أتحدث اليوم عن رجل يلى الشيخ محمد قاسم النانوتوى والشيخ رشيد أحمد الكنكوهى فى الفضل والكفاح، والعلم والذكاء، ويعاصرهما فى مجال التوجيه الدينى ومحاربة النزعات الفاسدة فى هذه البلاد، رجل رزق من التوسع فى العلوم والبصيرة فى الدين سهمًا وافرًا وأعطى من المعرفة القدسية والصلة الروحية حظًا كبيرًا، وهو أول من تربع على رئاسة التدريس فى مدرسة ديوبند الكبرى، فقام بتوجيه طلبة العلم الدينى وتوسيع نطاق المدرسة خير قيام، وقد تخرج عليه عدد وجيه من أذكياء الطلاب ممن صاروا علماء كباراً تزعموا البلاد وقادوها فى العلم والدين.

وهو الشيخ محمد يعقوب النانوتوى الذى يتصل بالشيخ محمد قاسم النانوتوى فى النسب والقرابة، ويلحقه فى الفضل والعلم، ويقاربه فى السن والشهرة ويشبهه فى كثير من خصائصه ومميزاته، ولد فى ١٣ من صفر لسنة ١٢٤٩ هـ وكان والده الشيخ مملوك على بن أحمد على من كبار علماء الدين فى عصره، وقد

سبق أنه من أساتذة الشيخ محمد قاسم والشيخ رشيد أحمد ومربيهما، وكان من كبار أساتذة العلم وشيوخه فتولى تربية عدد كبير من طلاب العلم والدين، وإنارة السبيل لهم فى دياجير الجهل والغواية، أما الشيخ محمد يعقوب فاستفاد من والده ما استطاع، ودرس عليه العلوم الدينية، وعندما بلغ العاشرة من عمره سافر والده إلى دهلى حيث عين رئيس المدرسين فى الكلية العربية فانتهز فرصة السفر لطلب العلم.

وسافر الشيخ محمد يعقوب إلى دهلى برفقة والده الجليل ومعه الشيخ محمد قاسم النانوتوى وبدأ دراستهما على الشيخ مملوك على الذى أشرف عليهما، وبذل فى تربتهما جهده حتى تقدما فى سيرهما الدراسى واستفادا منه علمًا جمًا وأدبًا كبيراً فى مدة قصيرة.

أما الحديث الشريف فقد قرأه على الشيخ عبد الغنى ابن أبى سعيد بن صفى القدر بن محمد عيسى بن سيف الدين ابن محمد معصوم السرهندى، وقد تذوق الحديث الشريف فتعمق فى دراسته ومارسه كفن له قيمته وأهميته مما لا يكاد يستغنى عنه من رزق من حلاوة الإيمان شيئًا، وذلك ما جعله يتبوأ منصبًا عاليًا فى العلوم الدينية ويتولى رئاسة التدريس فى معهد ديوبند الكبير، الذى عرف باهتمامه بالحديث النبوى وتفوقه فى هذا الجانب الحيوى على سائر المعاهد العلمية ولا يزال.

وقد رزقه الله من الانهماك فى دراسة الكتب ما يتعذر نظيره، فقد كان لا يأخذ الكتاب بيده إلا وهو ينزل إلى أعماقه، ويحل معضلاته بذكائه النادر، وملكته الفائقة، وجمع بين علوم العقل والنقل جمعًا غريبًا يستعين به فى فهم حقائق الدين ودقائق المعارف، ولذلك فقد استطاع أن يكشف القناع عن وجه معضلات المسائل بدون أن يعالج فى ذلك صعوبة، ويقنع السائلين عن مسائل الشريعة والمعترضين عليها بوجه مرضى.

وتوجه إلى أجمير كمدرس فى إحدى المدارس براتب شهرى قدره ثلاثون روبية، وظل يدرس فيها مدة حتى أراد عميد المدرسة أن يتولى منصب نائب الحاكم فى أجمير، ولكنه رفض، وعين مفتشًا عامًا فى مديرية المعارف، وبدأ يتقاضى ١٥٠ روبية شهريًا، وبعد مدة حدثت ثورة ١٨٥٧م المشهورة فى تاريخ الهند، فقبض عليه البوليس ظنًا منه أنه الشيخ محمد قاسم، وبقى فى السجن إلى أن تحقق لدى الحكومة أنه غير من تريده.

ولما تأسست مدرسة ديوبند الكبرى طلبه الشيخ محمد قاسم النانوتوى إلى ديوبند ليشغل منصب رئاسة التدريس فيها، فلبى طلبه وآثر التدريس فى هذا المعهد براتب لا يتجاوز ٢٥ روبية على المنصب الحكومى الكبير وراتبه الضخم، وبارك الله فى تدريسه فالتف حوله طلبة العلم وتخرجوا عليه ممن نبغوا وصاروا زعماء العلوم الدينية، ودعاة الإسلام فيما بعد، منهم الشيخ

محمود حسن المعروف بشيخ الهند، والشيخ خليل أحمد الانبيتهوى والشيخ المفتى عزيز الرحمن الديوبندى، والشيخ فتح محمد التهانوى، والشيخ أشرف على التهانوى.

ونظراً إلى ما فتح الله على يده من نشر العلوم الدينية وتخريج العلماء الكبار والدعاة المخلصين نستطيع أن نقول:

إن ما نراه اليوم فى الهند وباكستان وأفغانستان وأواسط آسيا من معاهد الدين ومعاقل العلماء والمخلصين إنما الفضل فيه يرجع إلى مدرسة ديوبند وشيوخها الأول.

وقد كان يشارك محمد قاسم النانوتوى فى كل الأمور والأعمال التى باشرها من خدمة العلم والدين، وإصلاح النفوس، وتقويم النزعات الفاسدة، غير أنه اتخذ طريق التربية والتعليم أكبر وسيلة لتحقيق هذا الغرض.

بايع الشيخ الكبير الحاج إمداد الله المهاجر المكى واكتسب منه علم الباطن، فوصل إلى درجة عليا من الإحسان والمعرفة وتوثق اتصاله بالله سبحانه وتعالى، وطرأ عليه من الحال ما جعله مهابًا لدى الناس، ومقبولا عند الله تعالى، ولعل ذلك كان أكبر سبب فى مكاشفته الكثيرة التى يحتضنها التاريخ العلمى والدينى فى هذه البلاد.

أما تبحره فى علم الحديث فمعلوم، ومعترف به لدى الأوساط العلمية، ولولا ذلك لم يتمكن من التربع على منصب رئاسة

التدريس فى مدرسة كمدرسة ديوبند، ولم يتخرج عليه العلماء والمحدثون أمثال الشيخ محمود حسن والشيخ خليل أحمد، ولكنه بجانب ذلك كان يتمتع بذوق أدبى رفيع، وكان شاعراً يقرض الشعر باللغات الفارسية والأردية والعربية على السواء يقول فى بيت بالفارسية ما معناه:

من الذى ألتجئ إليه إن حرمت رحمتك يا ربى. ويقول فى قصيدة بالأردية ما ترجمته: يا ليتنى لم أولد، ويا ليتنى لم أقع فريسة الحب، وياليت العالم موجود ولم أخزفيه بذنوبى، وإن أنا صادق فى حبى فياليتنى لم أفق منه، وقدر لى النظر إلى وجه الحبيب، وجعلت نداء الفارض، وياليت العالم موجود ولم أولد فيه.

وله قصيدة بالعربية يمدح فيها الرسول ﷺ يقول:

يا رب صلى على النبى محمد
يسين وطه ذى المكارم أحمد
بأبى وأمى ذا الرسول الأكرم
نفسى الفداء له وما ملكت يدى
اليوم يا أملى ويا كل المنى
وشفاعتى ونجاح نفسى فى الغد
أنت الكريم رءوفنا ورحيمنا
يا سيدى يا سيدى يا سيدى

فبحبه أرجو النعيم بجنة
وحظيت فى الدنيا بعيش أرغد
فى فرحة من حبه ومسرة
لازلت مذ أدعى باسم محمد

وله رسائل ومؤلفات تشهد بتذوقه الأدب واللغة، وتدل على معلوماته الواسعة ومادته الغزيرة.

وسعد بزيارة الحرمين الشريفين وحج البيت مرتين، وذلك فى زمن لم تكن مواصلات السفر مهيأة مثل ما نراه اليوم، وكانت الرحلة إلى الحج أكبر مغامرة يقوم بها المسلمون فى الهند.

توفى رحمة الله عليه فى شهر ربيع الأول لسنة ١٣٠٢هـ بعدما شق للمسلمين فى عصره طريق الهداية والعلوم النبوية، وفتح أمامهم باب العلم والدين، وخلف جماعة من العلماء العظام والدعاة المخلصين، الذين أبلوا فى سبيل الحق بلاء حسنًا، وأسهموا فى إنعاش المسلمين وإنقاذهم من مخالب الاستعمار الفكرى والسياسى إسهامًا لا يستهان به.

* * *

فهرس

مقدمة الناشر ٥

كلمة المؤلف ١٥

١. ساعة مع الشيخ أبو القاسم الجنيد بن محمد ١٩

٢. ساعة مع الشيخ شرف الدين يحيى المنيرى ٢٥

٣. ساعة مع الشيخ فريد الدين الأجودهنى ٤١

٤. ساعة مع الشيخ معين الدين السجزى ٤٩

٥. ساعة مع الشيخ بهاء الدين زكريا الملتانى ٥٥

٦. ساعة مع الشيخ قطب الدين الكعكى ٦١

٧. ساعة مع الشيخ أحمد السرهندى ٦٧

٨. ساعة مع الشيخ محمد معصوم السرهندى.. .. .. ٧٧

٩. ساعة مع الشيخ أورنك زيب ٨٩

١٠. ساعة مع الشيخ علم الله الهندى ٩٧

١١. ساعة مع شيخ الإسلام ولي الله الدهلوي ١١١

١٢. ساعة مع الشيخ عبد العزيز الدهلوي ١١٩

١٣. ساعة مع الشيخ إسماعيل الشهيد ١٢٧

١٤. ساعة مع الشيخ الإمام أحمد بن عرفان الشهيد ١٣٩

١٥. ساعة مع الشيخ ولايت علي الصادقبوري ١٨٩

١٦. ساعة مع الشيخ الكبير إمداد الله المهاجر المكي ٢٠٥

١٧. ساعة مع الشيخ محمد قاسم النانوتوي ٢١٩

١٨. ساعة مع الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي ٢٢٧

١٩. ساعة مع الشيخ محمد يعقوب النانوتوي ٢٣٧

من مطبوعـــات
دار المقطـــم

والموعد الله
كيف يفكر أهل الله وفيم يتحدثون

خالد محمد خالد

قال المؤلف فى مقدمته: "من المؤمنين رجال نعتهم الرسول عليه الصلاة والسلام بأنهم "أهل الله وخاصته". أولئك الذين تبتلوا لله، وحملوا بأيمانهم وفى قلوبهم نور القرآن الكريم.. تارة نسميهم "المتصوفة"، وأخرى: "أهل الله" و "أولياء الله" و "أهل الطريق"..

فعن "أولياء الله" كما أسماهم القرآن العظيم.. وعن "أهل الله" كما وصفهم الرسول الكريم يتحدث هذا الكتاب، وإليهم إهداؤه.

قصتى مع التصوف

خالد محمد خالد

إعداد محمد خالد ثابت

عزا المؤلف صموده فى مواقف المحن، وتحلّيه بالشجاعة، والترفع عن السفاسف، والقناعة، وسكينة القلب والضمير، وغير ذلك، إلى "التصوف" الذى كانت تجربته فيه عميقه وعريضة وصادقه. فى هذا الكتاب يضع خلاصة هذه التجربة لكل من أراد أن يعرف.

أنس الفقير وعز الحقير

فى التعريف بالشيخ أبى مدين وأصحابه رضى الله عنهم

للعلامة المحدث ابن قنفذ القسنطينى

تحقيق أبو سهل نجـــاح عوض صيام

تقديم د/ على جمعه

هذا الكتاب سجل حافل لرواد الفكر الصوفى المستنير على هـدى من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وذكر لأخبارهم وآدابهم وعلومهم مما تصح به القدوة وتسمو به الروح.

أبناء الخالة

أوليـــاء الله الثلاثـــة

محمد خالد ثابت

كان بالمغرب العربى رجل من أهـل الخير، وكان قد رُزق ثلاث بنات، فكانت أعظم أمنياته فى الدنيا أن يرزق اللـه كل واحدة منهن بولد يكون من الصالحين، وفى رحلة الحج حدث له مالا يخطر ببال، وذلك فى قصة عجيبة وجميلة..

وفعلا نوله الله مراده، فوهب بناته ثلاثة أقمار، بل شموس فى عـالم الصلاح والهداية والعلم.. هم موضوع هذا الكتاب.

تحت الطبع

حقائق عن التصوف

للعارف بالله الشيخ عبد القادر عيسى

كتاب جامع شامل، يجيب عن كثير من التساؤلات حول التصوف، ويصحح ما قام في الأذهان من ترهات وأباطيل في حقه دسها المستشرقون، وافتراها المغرضون، ويعرف القارئ بمفهوم التصوف الصحيح الواضح، المستقى من الكتاب والسنة، ويسوق أقوال الأئمة الأعلام فيه، وكذلك علماء الأمة في العصر الحديث.

البطولة والفداء عند الصوفية

أسعد الخطيب

من خير ما كتب عن موقف الصوفية من الجهاد، وأنهم بحق هم أساتذته ومعلميه، وملهميه، ومؤججي جذوته عبر القرون، لا ينكر ذلك إلا جاهل أو مكابر أو مغرض.

والكتاب بحث تاريخي موثق اعتمد مؤلفه على عدد كبير من المصادر والمراجع المطبوع منها والمخطوط، فهو - بحق - لا غنى عنه لكل طالبٍ للحقيقة، متمسك بعرى الإسلام.

نور الدين العظيم

محمد خالد ثابت

عن الرجل الذى جمع الله فيه بطولة وإقدام خالد بن الوليد، ولين وحزم أبى بكر الصديق، وعدل عمر بن الخطاب..

الرجل الذى قهر الصليبيين، وجرعهم الذل والصغار، ومهد لتطهير الشام نهائيا منهم، وكان صلاح الدين الأيوبى حسنة من حسناته.